حلم .. الأجفان المطبقة

د. أحمد زياد محبك

حلم .. الأجفان المطبقة

قصص قصيرة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
1996

حلم .. الأجفان المطبقة

قفزت من سريري، لست أدري هل سمعت جرس الباب؟ كنت على وشك أن أغفو، بل لعلي غفوت، وقد رأيت حلماً، ونادراً ما أرى أحلاماً، أو لعلي بدأت في رؤية حلم، ولكني لا أذكر شيئاً، ثم سمعت جرس الباب، ونهضت، وإذا زوجتي تفتح باب الغرفة وتدخل، وقد فاجأتني بقولها

- حامد في انتظارك

لماذا يأتي إليَّ حامد في مثل هذا الوقت؟

نظرت إلى ساعة يدي، الساعة الآن الخامسة، بعد الثالثة وصلت إلى البيت، كعادتي كل يوم، دخلت الحمام، واستحممت، ثم انتظرت إلى الرابعة حتى فرغت زوجتي من إعداد الطعام، حوالي الرابعة والنصف استلقيت في السرير، لم أنم، ولم أسترح.

حامد؟! لاشك أن أمجد هو الذي أرسله، ولكني أعرف أن أمجد قد سافر أول أمس الجمعة إلى البحر، هل ثمة حادث؟

- أهلا حامد

الحدقتان يكاد ينفجر منهما الدم، والوجه مصفر.

- ماذا يا حامد؟
- أمي وأبي في انتظارك.
- ماذا حدث؟

- سترى في البيت كل شيء.
- هل رجع أمجد؟

وانفجر في بكاء مكتوم.

لا يمكن أن أقود إلا بسرعة، هكذا دائماً يقول لي، قيادة الدراجة النارية لا يشبهها شيء، حتى ولا السفينة ولا الطائرة، هو لم يجرب قيادة السفينة ولا الطائرة، ولكنه يرى أن قيادة الدراجة النارية وحدها كل شيء.

لا يمكنني أن أتهم هناء، فأقول هي السبب، لا، قبلها كان لا يستقر له على الأرض قرار، دائماً ينطلق بدراجته، يريد أن يطأ كل طريق، بل كل أرض، وأن يتنسم وهو يقودها هواء كل بقعة، فلكل بقعة هواؤها، كما كان يقول.

السيارة لا تعجبه، مع الدراجة النارية أنت تتحكم في كل شيء، تسيطر عليها بكل ذاتك، وتمتلكها بكل جزئياتها، وأنت وحدك، وهي وحدها معك، كان لا يحب أن يحمل أحداً معه على الدراجة، أياً كان، على الدراجة أنت وحدك، يداك مشدودتان إلى المقود، تواجه الهواء بصدرك، تفتح له قلبك، تستقبله بعينيك، لا تطرف، ولا تغمض عينك، وفي لحظة تصبح جزءاً من الآلة، وتصبح الآلة جزءاً منك، تتصل أعصابك بأسلاكها، ويختلط دمك بوقودها، فتغدوان معاً كلا واحداً، لحظة تعدل العمر كله، ثم تعود ثانية لتدرك أنك تقودها، وتحس أنك معها، وهي معك، فتستسلم لها، كما استسلمت لك، وتتمنى لو تغفو.

أما السيارة، ففقد جربتها مرات ومرات، ما كنت أحس فيها بالمتعة، كنت أحس أنني أسير على أربع، وأحاول جهدي كي أتحكم فيها، ولكني أحس أنها تبقى مالكة لشيء من إرادتها، وأنها لا تنقاد لي، وأنني لا أستطيع أن أمتلكها الامتلاك كله، لا أنكر أني أستمتع بها، ولكن الأمر بالنسبة للدراجة مختلف جداً.

نزلت على الدرج، أنا وحامد ثم دخلت في السيارة من غير أن أقول شيئاً، وانطلقت، وهو إلى جانبي وأختلس النظر إلى وجهه في المرآة، متجنباً سؤاله.

مرة قال لي: أنا أعرف أنك لا تقود سيارتك إلا على يمين المسامير العاكسة المغروسة في وسط الطريق، بل إني على يقين أنك تأخذ أقصى اليمين من الطريق، وتنظر إلى عداد السرعة، وإذا رأيت المؤشر قد تجاوز الستين رفعت رجلك عن دواسة البنزين، والأولاد من ورائك يضجون في المقعد الخلفي، وزوجتك إلى جانبك تضع شريطاً جديداً في المسجلة.

هل رأيت؟! هذه هي السيارة، لا يمكن أن تكون فيها وحدك، ولا يمكن أن تنطلق بها، هل تعرف أني لا أقود إلا فوق تلك المسامير المغروسة في وسط الطريق، وإذا لم يتجاوز عداد السرعة المئة والعشرين دفعت المقود بكلتا يدي، ولا تعرف كم أستمتع بتلك المسامير، ولاسيما الجديدة، لأنها أكثر نتوءاً من القديمة، فكل مسمار يدفع بالدراجة إلى أعلى، ويجعلها تحلق في الهواء، هل

تستطيع أنت أن تحلق بسيارتك في الهواء؟! نشوتي الوحيدة هي التحليق في الهواء.

كان يروي لي دائماً أحلاماً يرى فيها نفسه وهو يحلق فوق الدرج، يقف على الدرجة الأولى، ويقفز إلى أعلى، فيجاوز أربع درجات أو خمساً، ويحط على الدرجة السادسة، ليقفز ثانية، يضغط على قدميه، يثني ركبتيه، يدفع بجسمه إلى أعلى، فيقفز خمس درجات أيضاً، وأحياناً يأتي بدفعة من قدميه وهو محلق، فيتجاوز درجات أخرى من غير أن يحط، أخبرني أنه حاول تحقيق ذلك في الواقع، لكنه لم يفلح، كان أحياناً في الحلم يدرك أنه مجرد حلم، وفي أحايين كثيرة كان يحس وهو في الحلم أنه واقع وليس حلماً.

أمام البيت أوقفت السيارة، التفت إلي حامد، هززته بقوة من كتفه، ثم رفعت وجهه إليَّ، وأنا أحدق في عينيه والدموع تسيل منها.

- حامد، أخبرني، أمجد ماذا جرى له؟
- سترى الآن كل شيء.

ونزلنا من السيارة، واتجهنا إلى البيت.

من أجل هناء يا أمجد؟ لا أستطيع أن أفهم!؟ هل هناء هي المسؤولة أم الدراجة؟! لست أدري كيف عرف هناء؟ كما لا أعرف من هي؟ هل هي حقيقية أم خيال؟ هل هي واقع أم وهم؟ هل هي مجرد أسطورة؟

في يوم الجمعة من كل أسبوع ينطلق مع الفجر على دراجته، ليعبر السهول والوديان، ويتسلق الهضاب والجبال، ويجتاز الجسور والمعابر،ويخترق الأنفاق، حتى يبلغ البحر، قاطعاً عشرات الأميال من الداخل إلى الساحل، من البادية إلى البحر، ليصل إلى هناء.

ليس في نساء الأرض كلها مثل هناء، أقسم أنه تعرف إلى إحدى عشرة امرأة ولكنه لم ير فيهن مثل هناء، ولم تكن هناء مثل واحدة منهن، كانت تجمع كل ما فيهن جميعاً وتتفوق عليهن، ثم تنفرد بما هو خاص بها، بعد ذلك كله.

سألته مرة: هل هي شقراء أم سمراء؟ فأجاب: هي هناء فقط، وليس بإمكان أحد من رجال الأرض كلها أن يفهم هناء، أو يعرفها، سواي أنا، ولذلك لا فائدة من وصفها، أو الحديث عنها، هي وأنا، أنا وهي، فقط.

أحياناً هي الماء وأنا الطين، وأحياناً هي الطين وأنا الماء، من خلالها عرفت سر ولعي منذ الصغر بالطين والماء والتراب وشمس تموز، في الشتاء كانت ساحة القرية تمتلئ بالمطر، وتتحول إلى مستنقع طيني، كان الأولاد يلعبون على أطرافها، وكنت أغوص في عمقها، ثم أخرج وقد تلطخ جسمي كله بالطين، فأقعد في الشمس حتى يجف الطين العالق بجسمي ويتشقق، وعندئذ أعود إلى الماء لأغطس فيه ثانية.

وفي الصيف يلعب الأطفال في ظلال الجدران، متفيئين من شمس تموز، وكنت ألعب في العراء، تحت الشمس، وأتمرغ في التراب الغباري الناعم، ثم أغدو إلى البئر، وأدلق على جسمي دلاء الماء البارد، لم يكن في قريتنا نهر ولا بحر، هناء هي البحر والماء والتراب والطين.

واليوم لا شمس تموز تحرقني، ولا أمطار نيسان تغرقني، وأنا أقود الدراجة تحت المطر، أتمنى لو يتغلغل إلى جلدي ويخترق مسامي وينفذ إلى عروقي، لأصل إلى هناء وأنا مبلل، نديان، فترتوي مني ما شاء لها الارتواء، وحين أقود تحت شمس تموز أحس أن جلدي قد يبس وتقشر، فأفرح وأتمنى لو زاد الحر التهابا، فأنا مطمئن إلى أني سأغطس أنا وهناء، هناك في البحر، وأني عندئذ من الماء أكثر فأكثر .

كنت في الحقيقة أختلف معه كثيرا، كما أختلف عنه، وإذا ناقشته في أمر، فأفحمته فيه، كان يقول لي: "هذه الستة التي تكبرني بها لن تجعلك أكثر حكمة مني "، ثم يقول: " إذا كنت أنت قد بلغت الثلاثين فاعلم أني لم أبلغها أبدا، سأبقى دائما في التاسعة والعشرين".

وكنت أحبه وأصدقه في كل ما يقول، كما كنت أقره على ما هو فيه، لأني أدرك أن هذا هو تكوينه، وأن هذه هي فطرته وحقيقته وطبيعته، وأن ما هو فيه ليس مرضا ولا جنوناً ولا عبثاً ولا اصطناعياً ولا تكلفاً، وإنما هو

أمر طبيعي فيه تماما، بل إنما هو أمر خاص به، وهكذا سلمت بأمره، واعتبرته واقعا وحقيقة، وما عدت ألومه على شيء أو أناقشه فيه .

أمجد أقرب صديق إلي، بل إن وصفه بصديق يكاد لا يكفي، على الرغم من إحساسي بأنه ينتمي إلى جيل أخر، أو طينة أخرى، وكان هو يعبر عن ذلك بصورة مختلفة، فيقول لي :"أنت تشبه أبي "، وكنت لا أستاء من هذا الوصف، لأني كنت دائما أبدي إعجابي بأبيه، من خلال أحاديثه عنه، ولما عرفني إليه ازداد إعجابي به، وسرعان ما توطدت علاقتي به، وسرعان ما توطدت صلتي به، وبسائر أفراد أسرته، وأصبحت أثيرا لديهم لعلهم توقعوا أن أتمكن من رده عن الطريق التي هو فيها، وأنا المتزوج وصاحب أولاد ثلاثة ، ولكني نادرا ما كنت أحاول ذلك .

ولقد كان دائما يذهلني، فقد أكد لي أنه وصل إلى هناء بعد ثلاث ساعات من السفر المتصل، شمس تموز شققت جلده، كما كان يتمنى، ونضحت كل ما في عروقه من ماء، وألهبت فؤاده إلى قطرة يبل بها ظمأة، وأشعلت في داخله لهيبا لاينطفئ، وهو يمني نفسه بالخوض في عباب بحرها اللجي، والغوص حتى الأعماق، وعب كل ما في اللجنة حتى القرار، ولكنه أكد لي مقسما أنه على دراجته بعد خمس ساعات أمضيناها معا قاعدين على صخرة عالية، تطل على البجر والموج يزبد عند أقدامها،

ولا يكاد يلامس أصابع القدمين، وقد رفعا وجهيهما إلى نسيم البحر البلبل، يتلقيان معا نداه الناعش، المنغوم بأصوات النوارس، يقطعها صوت تكسر الأمواج على صخور صلدة لا تشرب من الأمواه شيئاً، قال لي : لقد تعلمت كيف استقبل النسيم بوجهي وأملأً منه رئتي وقلبي وأرتوي بنقائه الصافي، ثم أقسم مؤكدا أن يده لم تمس في ذلك اليوم يدها، وهما اللذان كانا قد غاصا من قبل معا مرات كثيرة في البحر حتى القرار، والتقطا معا الأصداف ، ثم ارتميا على الرمال الناعمة، التي تشرب الأمواج المتعاقبة عليها في غير ما انتهاء، ولا الرمل يرتوي، ولا الموج يستقر أو ينفذ .

كدت لا أصدقه فيما قال، ولكني سرعان ما وجدتني أسلم بما يقول، وأصدقه، فلحديثه دائما سحر خاص .

ثم قال: من يغص وهناء إلى القرار يجد هناك نارا متقدة ليست كنار، هي البرد والسلام، على الرغم مما فيها من دفق وهج مستعر، وبعد أن تصطلي معها برد تلك النار الناعمة، وترتوي من دفئها الخدر، تطفو عندئذ إلى سطح عالم آخر، وتغفو على وساد من هواء، ويحلو لك النوم، وتطيب لك الأحلام، وهنالك تأتلق فوقك في السماء آلاف النجوم .

وفتح حامد الباب، ودخلنا، وإذا دراجة أمجد مركونة وراء الباب، لم نقف عندها، ومضينا إلى الداخل،

بدت لي كأنها مهيأة ليقودها وينطلق بها الآن، ربما كانت مرآتها فقط هي المحطمة .

ماذا بالنسبة إلى أمه وأبيه وأخوته؟ لا أظن أنه مضطر إلى الكذب على أحد منهم، كما أنه ليس مضطرا إلى مصارحة أحد بشيء، ولعلي الوحيد الذي يعرف عنه كل شيء، ولاسيما بالنسبة إلى هناء، وأنا أعرف حق المعرفة أنه يحب أمه ويقدسها، كما يحب أباه ويحترمه، والأهل يعرفون دائما أن للشباب مغامراته، وهم واثقون من أنه سيعود في وقت قريب إلى جادة الصواب، التي يقر بها أكثر الناس، ويمشون عليها .

وفجأة وجدت نفسي أغوص في لجة من الدموع والندب والعويل والبكاء، وثمة صندوق خشبي طويل، ومن حوله الأم والأب والأخت، وأنا أقف أمامه ن والى جانبي حامد، أين محمد إذن؟! توقعت كل شيء، ولكن لم أتوقع ما أراه على الإطلاق، كنت كلما ودعته أحس أن ثمة حادثا ما سيقع، ولكن لم أتوقع هذا .

-هل حدثته يا أحمد ؟!

-لا يا أمي

-إذن احك له، احك ، ماذا تنتظر؟ عيني عليك يا أمجد ؟!

-وصل إلى الساحل، ودخل البلد، كان يقود بسرعة، كعادته، داس قطعة حجر صغيرة، هكذا روى الناس، يبدو أنه رآها، داس فوقها، طارت به الدراجة.

وأجهش في البكاء، ولم يتمكن من المتابعة، فأخذ الأب يتكلم :

- حلق في الهواء، كل الناس قالوا إنهم رأوه وهو يحلق في الهواء، ويداه تمسكان بالمقود، ثم حطت به الدراجة، فنزل على رأسه.

وعاد حامد إلى الكلام

- أسرع الناس إليه يريدون إسعافه، فقال لهم: "وصلت، وصلت "، ثم لفظ الروح.

قال الأب:

- كم كان يحب السباحة في البحر؟ وصل إلى البحر، نعم وصل.

وأضافت الأم، وهي تجهش في البكاء:

-أنا أعرف ابني، كان يخاف الله ويخشاه، ولابد أنه كشف عن بصيرته، فرأى الجنة، وقال: وصلت، وصلت.

وفي أثناء ذلك كانت أخته تندب وتعول لاعنة الدراجة والسباحة والبحر.

لم أستطع قول كلمة واحدة، وأنا أحاول منع نفسي من البكاء.

وبسرعة نزعت مسامير الصندوق، وحدي، وكشفت الغطاء الخشبي، وكنت أول من يرى وجهه.

هل يعقل أن أكون ما أزال نائما في سريري؟ هل هذا كله حلم؟ مجرد حلم؟ لا يعقل ذلك؟ ليته حلم، ولكن هاأنذا أمام أمجد، وهو نائم، ولا حلم سوى الحلم الذي

أطبق عليه جفونه، خشية أن يهرب منه، وعلى شفتيه طيف ابتسامة، كم هو حلم ناعم وجميل؟!

وصك سمعي قول الأم، وهي تقبل أمجد وتجهش في البكاء:

- نوم الهناء يا بني.

ووجدت نفسي أنتحي جانبا، لأمسح من عيني الدموع.

شهادة وفاة

بعد حوالي الساعة رجع رشيد، أوقف سيارته البيك آب أمام دار المختار، نزل منها مسرعاً، ودخل على المختار، كان ما يزال عنده أبو القاسم وسامح، أما باقي الرجال فقد ذهبوا، ألقى السلام، ثم ناول المختار ورقة استلها من جيبه.

فسأله المختار:

- ما هذا يا رشيد؟!

- شهادة وفاة

- ومن أين جئت بها؟

- من الدكتور منير، لقد ذهبت إليه في منزله في المدينة.

- ولكن من ساعة كنت هنا، كيف رحت وجئت؟

- ثلاثون كيلو مترا بين القرية والمدينة لا تحتاج إلى أكثر من ثلث ساعة، أنا أعتبر نفسي تأخرت.

- ولكن لم تقل أنك ذاهب لإحضار شهادة الوفاة من الدكتور منير في المدينة.

- وهل من الضروري أن أخبرك، أنت طلبت منا شهادة الوفاة، ورفضت الاستجابة إلى رجاء كل الرجال الذين كانوا هنا، فخرجت وجئتك بالشهادة المطلوبة، هل في هذا أي خطأ؟!

وصمت المختار برهة، ثم قال:

- أنا في الواقع مدهوش، كيف يعطيك الدكتور منير هذه الشهادة، وهو لم يشاهد الميت، ولم يكشف عنه؟!

- ولكن الدكتور منير هو طبيب القرية، ويعرفنا جميعا، ونحت نعرفه.

ورد المختار:

- لا يا رشيد، القانون فوق كل شيء، هذه الشهادة مرفوضة، وأستطيع الآن الاتصال بالمسؤولين في المدينة لإلقاء القبض على الدكتور منير.

وتدخل أبو القاسم، وهو كهل، في عمر المختار، فقال:

- يا مختار، أنا وأنت من جيل واحد، وأبو أمجد صاحبنا وأخ كبير لنا، ونحن عشنا مع بعض، ولي رجاء عندك، اقبل هذه الشهادة.

فقال المختار ببرود:

- يا أبو القاسم، أنت صاحبي، وأنا أرجوك؛ لا تحرج نفسك، هذه الأمور قانونية، أنا المسؤول هنا عن القانون.

ولم يصمت أبو القاسم، فقال، وكأنه لم يسمع كلام المختار:

- ولكن الناس وقعوا في مشكلة

- وأي مشكلة يا أبو القاسم؟!

- جثة أبو أمجد والناس ينتظرون موافقتك على الدفن.

- ليس هناك مشكلة، اليوم عطلة، والدكتور منير في منزله في المدينة، لينتظروا إلى صباح الغد، غدا يأتي الدكتور منير إلى مستشفى القرية فندعوه إلى زيارة الميت، فيكشف عنه، ويقدم الشهادة المطلوبة.

وتشجع رشيد فقال:

- ولكنك تعرف صعوبة الانتظار في وجود جثة.

فرد المختار على الفور:

- افترض أن له ولدا خارج البلاد، هل كانت ستدفن جثته قبل مجيء ابنه؟!

- ولكن لا ضرورة في مثل حالتنا للانتظار، ولاسيما ونحن في شهر تموز، والجو كما ترى حار، بعد ساعة أو ساعتين تنفسخ الجثة.

لا، لن تنفسخ أنا أضمنها إلى صباح الغد، أنا بيدي هاتين دفنت عشرين جثة، أبي وأمي وأخوتي وأولاد عمي، بعد يومين وثلاثة، وما كان عندنا كهرباء الآن وصلت للقرية، ضعوا أمام الجثة مروحة، إذا كان أمجد ما عنده مروحة، فحذوا مروحتي.

وخيم صمت مريب، قطعة بعد ذلك رشيد، فقال:

- يا مختار، أبو أمجد عجوز، وكلنا كنا نتوقع وفاته، ولاشك أن الموت كان طبيعيا بسبب مرضه.

وببرود أجابه المختار:

- يا رشيد، أنت لا نعرف ربما مات بالجدري، أو الكوليرا أو التيفوئيد، ونحن في الصيف، هل تعرف أنه قد يسبب وباء يجتاح القرية كلها، وأنا المسؤول هنا.

- يا رشيد، يا رشيد، لا تحاول إقناعي، القانون هو القانون، وأنا وحدي المسؤول هنا، هل تتحمل المسؤولية عني؟!

وتكلم سامح، وهو شاب دون العشرين، فقال:

- أنت يا مختار ظلمتنا حين طبقت على القرية قانون دفن الموتى، هذا القانون وضع للمدينة، لا للقرية.

ونظر المختار إلى سامح طويلاً، ثم قال له:

- أنت يا سامح ليس من حقك الكلام، ولاسيما في حضور الرجال في عمر أبو القاسم، وعلى كل حال مادمت قد تكلمت، فمن المؤسف أن تنطق بمثل هذا الكلام، وأنت الشاب المثقف، يبدو أن ثقافتك ما اكتملت، على كل حال غداً تأخذ الشهادة الثانوية، وتنزل إلى المدينة وتدخل الجامعة، وترى معنى النظام والقانون، وعندئذ سوف تندم على ما قلت الآن.

ونهض سامح، وخرج، وهو يغمغم بكلمات، لم يسمع أحد من الرجال منها شيئا.

وتكلم رشيد بحسم، يريد الوصول إلى القرار، فقال:

- هل تريد يا مختار أن أذهب إلى المدينة لأحضر لك الدكتور منير بنفسه، كي يكشف أمامك عن جثة أبو أمجد، ثم يقدم لك الشهادة المطلوبة؟!

ورد المختار بحسم أقوى فقال:

- يا رشيد، لا تكلمني بهذه اللهجة، أنا لا أريد أي شيء، وأنت لا تقدم شهادة الوفاة إلي، وإنما تقدمها إلى القانون، وأنا هنا ممثل القانون، والمسؤول عنه.

وخرج رشيد، من غير أن يقول شيئاً.

ونهض أبو القاسم، ووقف أمام المختار، وجها لوجه، ثم قال له:

- يا مختار أنت كل مرة تخلق للفلاحين مشكلة ثم تحلها بنفسك في الوقت المناسب، قبل أن تصل الأمور إلى نقطة لا حل لها، وتبقى أنت دائما المسيطر، ولكن يبدو أن هذه المرة.

وأشار إليه برأسه إشارة يأس وإخفاق، ثم أدار إليه ظهره، وخرج.

*

في صباح يوم الجمعة كان أبو أمجد قد توفى.

استيقظ ابنه أمجد، فوجد الشمس قد تجاوزت الأفق، وبدأت تصعد في السماء، تنبه إلى أنه تأخر، وأن والده لم يوقظه، كانت العادة أن يوقظه أبوه العجوز كل صباح قبل بزوغ الشمس حتى في أيامه الأخيرة، على الرغم من مرضه. أسرع إلى غرفة أبيه، طرق عليه الباب، لم يسمع جواباً، دفع الباب ودخل، فرآه في فراشه، اقترب منه، كان فاغر الفم، شاخص العينين، ويده مرخية إلى جانبه، ولا نبض.

وانتشر الخبر في القرية، وأخذ الناس يتوافدون على دار أبو أمجد.

- وفاة هادئة، لا تعب فيها، ولا عذاب.

- عاش حياة هادئة، ومات ميتة هادئة، يا له من رجل طيب.

- يجب أن نساعد ابنه أمجد على دفن أبيه، فهو ابنه الوحيد، لابد من مساعدته.

- من حسن حظه أنه توفى في الصباح الباكر، نستطيع تجهيزه ودفنه من غير استعجال، فأمامنا النهار كله.

- ومن حسن حظه أيضاً أنه توفى يوم العطلة، كل القرية ستشارك في تشييعه.

هكذا قال الرجل، وهم في دار أبو أمجد.

ولما خرج إليهم أمجد من غرفة أبيه،دامع العينين، قال له رشيد:

- لا تكلف نفسك يا أمجد أية مشكلة، نحنا سندبر الأمر كله.

وقال صالح:

- أنا سأدفع لمكتب الدفن ثمن القبر.

وقال أبو القاسم:

- أنا سأقدم طعام الغداء لكل من يأتي لتعزية أمجد.

كان أبو أمجد قد بلغ الثمانين، بل لعله تجاوزها بقليل، وكان قوي البنية، يدب على عصا صنعها بنفسه

من شجرة التوت القائمة في ساحة القرية، هناك عجائز كثيرون، ولكنه كان أكثرهم تقدماً في العمر، وأكثرهم قوة، لم يمرض، إلا في الأيام الأخيرة من حياته، وأمجد هو ابنه الوحيد، وهو مثل أبيه، طيب القلب، حسن المعاملة، يحبه أهل القرية كلهم، ولم تكن عنده سوى قطعة أرض صغيرة، يعمل فيها، ويعيل أباه، وأولاده الثلاثة، وزوجته.

وساد شيء من الصمت، فقال رشيد:

- أنا سأذهب إلى المختار، وأعلمه بالوفاة، وأطلب من مكتب الدفن إرسال القائمين على أعمال الدفن فوراً.

- ذهبت إلى المختار، لأخبره بوفاة أبي، وأحصل منه على إذن بالدفن، فقال: هيئ قبل كل شيء شهادة الطبيب بالوفاة.

هكذا قال أمجد، وهو يغص بدموعه، فقال رشيد:

- لا تقلق، أنا سأذهب إلى المختار، وسأقنعه بتأجيل الحصول على شهادة الوفاة إلى يوم غد، حتى يحضر طبيب القرية إلى المستشفى.

ونهض يهم بالخروج، فقال له محمود:

- الأفضل ألا تذهب وحدك، سنذهب نحن معك.

فقال رشيد:

- لا ضرورة لذلك.

فقال أبو القاسم، وهو ينهض عازماً على الذهاب مع رشيد:

- كلام محمود صحيح يا رشيد، سنذهب نحن معك، أنت تعرف المختار، عنيد، ومتمسك بالقانون.

وانطلق إلى المختار، رشيد، وأبو القاسم، ومحمود، وانضم إليهم حسين، وسامح.

ودخل الرجال على المختار، فتلقاهم بهدوء بارد.

وتكلم رشيد، فأكد المختار أنه لابد من شهادة الوفاة، وحاول الرجال إقناعه أن الوفاة طبيعية، وأنهم يضمنون له الحصول على شهادة وفاة من الدكتور منير في اليوم التالي، فسخر منهم، وقال:

- هذا تجاوز للقانون، بل تلاعب به، وأنا لا أسمح به على الإطلاق.

وعلى الفور غادر رشيد منزل المختار، من غير أن يقول شيئاً، وهو غاضب، وأسرع إلى سيارته، وغادر بعده دار المختار أكثر الرجال.

*

قبل أقل من سنة، قرر المختار أن يطبق في القرية قانون الدفن المطبق في المدينة، وكان من الطبيعي أن يحظى قراره بالموافقة، بل كان من الطبيعي، أن لا يلقى شيئاً من الاعتراض.

- لقد وصلت الكهرباء إلى القرية، ومدت فيها شبكة اتصالات هاتفية، ربطتها بالمدينة، وبسائر المحافظات، كما استفادت من خدمات المياه، وخدمات

المجاري والصرف، وفيها مستشفى وثانوية، فلماذا لانطبق فيها قانون دفن الموتى؟!

هكذا كان المختار يتحدث إلى الرجال في القرية، كان يتحدث بهدوء وجدية، وهو على يقين من أنه لن يلقى المعارضة.

ثم تابع بعد ذلك كلامه، مردداً كثيراً من الحجج والبراهين الصحية والقانونية، مكرراً كلمات مثل النظافة والصحة العامة والقانون والتطور والرقي والحضارة، ثم ختم كلامه بقوله:

- لن تكون المدينة بعد اليوم أفضل من الريف، بل سوف نتفوق على المدينة، وسنتقدم عليها، لأننا بعددنا القليل، سنكون أكثر دقة، وانضباطاً في تطبيق القانون، في حين أن القانون في المدينة كثيراً ما يتم تجاوزه.

ولكنه ما لبث أن أضاف:

- مكتب دفن الموتى سيحقق للعاملين فيه، أجوراً شهرية ثابتة، تضمن لهم عيشاً لائقاً، ولن تجعلهم كما كانوا من قبل، ينتظرون الموت، لكي يرتزقوا من أعمال الدفن، وذلك المكتب سيوفر للميت كل الخدمات المطلوبة بسرعة، وسوف يوفر على أهل الميت عناء الإعداد للدفن ولاسيما حين يكون الموت بغتة، وهو غالباً ما يكون بغتة.

وهكذا تم تطبيق القانون، وأنشئ مكتب لدفن الموتى.

أعجب الفلاحون بكلمات الصحة والقانون والحضارة، ولكنهم ما لبثوا أن فوجئوا بتعيين شقيق المختار، مديراً للمكتب، وكان عاطلا ولا عمل عنده، ثم فوجئوا باستملاك المكتب للمقبرة، وما حولها من أراضي، وبإلزام الفلاحين جميعاً في دفن موتاهم في قبور جديدة، تباع لهم بأسعار عالية، ولا يجوز لأحد أن يدفن ميتاً من غير تلك القبور.

*

ومن أمام بيت المختار انطلق رشيد بسيارته، وهو عازم على إحضار الدكتور منير من المدينة.

- سأدفع له ألف ليرة، وإذا كان قد خرج من البيت، فسأحضر إلى القرية، مدير أكبر مستشفى في المدينة، سأقلع عين المختار.

هكذا كان يقول لنفسه، وهو يمر بسوق القرية، لم يلق بالاً إلى من يحييه، أو يشير إليه.

ولكنه فجأةً خفف السرعة، ثم توقف، وأخذ يرجع بسيارته على الوراء، رجع أكثر من مئة متر، حتى توقف أمام دكان أبو عمر، ومن غير أن ينزل من السيارة، مد رأسه من النافذة، ألقى تحية على أبو عمر، وهو قاعد في دكانه، ثم سأله:

- أبو عمر، ابنك في المدينة أم في القرية؟

- لا، في القرية.

ومن غير أن يقول شيئاً، انطلق بسيارته نحو بيت أبو عمر، وقبل وصوله إليه، أطلق بوق سيارته، ومع نزوله من السيارة، رأى عمر يخرج من باب الدار.

- يا عمر، خبرني، أنت في كلية الحقوق كما أعرف، هل هذا صحيح؟

- نعم.

*

وبعد دقائق وصل رشيد في سيارته، وبجانبه عمر إلى دار المختار، وهو ينزل من السيارة رأى جماعة من الرجال قادمين وهم يحملون العصي والمعاول والفؤوس، وفيهم سامح وأمجد وأبو القاسم، وحولهم يتراكض بعض الأطفال وهم يتصايحون منادين بسقوط المختار.

وتقدم منهم رشيد يقول لهم:

- انتظروا أنا سأدخل على المختار، عمر سيكلمه.

فأجاب أبو القاسم:

- لا فائدة من الكلام يا رشيد.

فقال رشيد:

- لا، عمر هذه المرة سيكلمه بطريقة مختلفة، على كل حال انتظروا أنتم هنا أمام باب الدار، وإذا تأخرنا نحن في الداخل، فاهجموا على الدار ولا تنتظروا.

*

ودخل رشيد على المختار، يتقدمه عمر، ليقول له:

- يا مختار، في المادة 35 من البند الرابع من قانون دفن الموتى، ورد أنه يجوز في حالة تطبيق هذا القانون في القرى قبول شهادة الوفاة من الطبيب في المدينة كان يشرف على علاج المتوفي مسنا تجاوز الثمانين وغير مطعون في وفاته الطبيعية.

ورد المختار:

- ولكن يا عمر، أنا المسؤول هنا عن القانون، وفهمه وتفسيره، وتطبيقه، لا أنت ولا غيرك.

فقال رشيد:

هذا صحيح يا مختار، ولكنك مسؤول اليوم فقط، وغدا سيكون في القرية مختار آخر غيرك، وسيتحمل المسؤولية بدلاً منك.

- وسأل المختار بحدة:

وكيف هذا يا رشيد؟!

فقال عمر:

- أنت تجاوزت السبعين يا مختار، وفي المادة 43 من البند السادس من قانون الأحوال المدنية لا يحق للمختار الاستمرار في عمله في حال تجاوزه الخامسة والستين.

ورد المختار بعناد:

- ولكن هذا القانون معطل، ولا يعمل به.

فقال عمر:

- نعم، هو معطل، ولكن غير ملغى، ونحن سنعمل به.

وازداد المختار عنادا فقال:

- ولكن أهل القرية أكدوا أكثر من مرة أن المختارية لي مدى الحياة، وقالوا: لو كان لي ولد لكانت المختارية له من بعدي.

- ولكن أهل القرية الآن يطالبون بعزلك، وإذا لم تصدق فانظر من النافذة.

هكذا رد عليه رشيد، ثم أدار إليه ظهره، وتوجه إلى الباب هو وعمر، وحين فتحه ليخرج رأى الرجال أمامه يرفعون العصي والفؤوس والمعاول، وهم على وشك اقتحام الباب على مختارهم القديم.

*

وبعد أقل من ساعة دفن أبو أمجد.

وشاركت في تشييعه القرية كلها.

الصورة الأخيرة للمدير العام

-1-

وماذا بعد؟ الساعة العاشرة والنصف، وحتى الآن يأتي ولا أحد يذهب، هل وحدي أنا الذي بلغت الخامسة والستين، والذي أسعى إلى الإحالة إلى التقاعد، والباب مصفح بالحديد ومغلق، لا يمكن أن ترى شيئا، ولا أن تسمع، باب السجن، المراجعة الساعة 11، وماذا لو كان الواحد لا يقرأ؟!، إذا كانت إحدى الأوراق تحتاج إلى توقيع أو توقيعين فلن أتمكن من إنجاز عملي اليوم، هل أبقى هنا إلى يوم غد؟! وفي أي فندق سوف أنام؟ وأنا طول عمري ما سافرت، ولا عرفت السفر؟ وأين سوف آكل؟ ها آكل مرة ثانية في المطعم الذي فطرت فيه؟ لا، سأبقى من غير طعام ثلاثة أيام، ولن آكل عنده مرة ثانية، ولو قدم لي السمن والعسل.

هل يعقل أن يكون هذا الباب من غير بواب؟ أو أي شيء؟ حتى لا ثقب، ولا جرس، ولا ذراع للطرق، فقط: "المراجعة الساعة11" الساعة 11، خطان مستقيمان، لا يلتقيان، هما، متوازيان، هكذا علمني صاحبي حسان، الآذن حسان، سامحه الله، علمني، وشجعني على الحصول على الكفاءة، وحصلت عليها، ولكن ماذا استفدت؟ بقيت آذنا، في معمل الزجاج قال لي المدير: "وإن أخذت الكفاءة؟! ماذا تريد أن تصبح؟ خبيراً؟ مهندساً؟ عاملاً فنياً؟ أم مديراً عاماً؟ قل لي؟ على كل

حال إذا لم يعجبك العمل قدم طلب الاستقالة ثم اذهب وافتح عيادة، الآن صار معك شهادة"، اندلق علي مثل المجرى المسدود إذا انفتح، أنا ما قلت له سوى كلمة واحدة: "هل بالإمكان تعديل وضعي؟"، كلمة قلتها في السر، بيني وبينه، فضحني، وحكى للجميع كانوا أطيب منه، وأنقى، وأفضل وانتقلت إلى معمل الغزل والنسيج، الأسوأ حين انتقلت إلى المدارس، لاشك كل الناس هنا وهناك كانوا لا أروع منهم ولا أجمل، مثل الورد، إلا المديرين، فهم أحناش وذكور نحل، وكان حظي دائما طول عمري أن أعمل في مكتب المديرين.

إيه ما أروع أن يموت الرجل في الأربعين؟ أو في الخمسين، ولكن أن يبلغ الخامسة والستين، فلا معنى عندئذ لموته ولاسيما إذا كان قد ولد وهو آذن، ثم مات وهو آذن، لاشك كلنا سوف نموت، الآذن والملك، الواحد قبل الآخر أو بعده، لا فرق، كلنا نموت، لا فرق، ولكن حين تأتي وتذهب من غير أن تستطيع فعل شيء، لا لنفسك ولا لأولادك، تولد آذناً، وتموت آذناً، لا تستطيع أن تغير شيء في حياتك، ولا حياة أولادك، ولاقي بيتك ولا في طعامك، عندئذ يظهر الفرق، حتى في الموت، نعم، حتى في الموت نفسه.

الحادية عشرة، إلا خمس دقائق، وأنا وحدي، والباب مغلق، وأنا وحدي، لا أحد، لا أحد، لساني في فمي أصبح مثل اللحم المنتن، حبات الفول التي تناولتها في ذلك

المطعم أحس بها كالحجارة في بطني، أشتهي أن أرى أحداً مثلي ينتظر، أحكي معه، يحكي لي، أسمع منه قصة جديدة، لعلي أنا مخطئ، ربما كان للمديرية باب آخر، غير معقول، طفرت.

-2-

- مرحبا أخي
- مرحبا
- من فضلك أين المديرية العامة؟
- بجانب محلي
- هذا الباب الذي بجانب محلك تماماً؟
- نعم
- هل لها باب آخر؟
- لا
- يعني، أقصد متى يفتح هذا الباب؟
- الساعة 11
- لا يمكن أن يفتح قبل الساعة 11؟
- لا
- هل عندهم دوام هذا اليوم؟
- طبعاً
- لا تؤاخذني، أنا موظف في الدولة، عامل، آذن، صار عمري 65 سنة، ومضى علي 40 سنة في الخدمة، قدمت طلب إحالتي على التقاعد، مضى عليه ثلاثة أشهر وما رجع الجواب، نصحوني بالمجيء إلى المديرية

العامة هنا في العاصمة، أنا رجل عجوز، ست ساعات في الباص، وهو يخض بي، مدينتي في أقصى الشمال، وصلت الساعة 7 صباحاً، والله طول الليل في الباص مانمت، صار لي أربع ساعات وأنا أنتظر على درج المديرية، لاتؤاخذني، لساني خم في فمي وأنا لاأجد من أتحدث معه، طولت عليك الكلام، لاتؤاخذني، السلام عليكم، هذا باب المديرية انفتح، دقت ساعة غرينتش، السلام عليكم.

- مع السلامة.

-3-

لست أدري لماذا أحس بالارتياح؟ حيثما سرت وجدت أموري ميسرة، حقاً لقد صعدت الدرج مرتين ونزلت، ولكن في كل غرفة كانت الأمور تسير على خير ما يرام، نسيت التعب كله وطول الانتظار، وفي كل غرفة تقول لي الموظفة: "تفضل"، وكنت أقعد على كرسي، أستريح فيه حقيقة، لعلي طول عمري لم أقعد على كرسي مثله، لو أني كنت شاباً لكان الأمر مختلف، ولكن ما كنت جئت إلى هنا، ولا قدمت طلباً بإحالتي على التقاعد، من حق كل موظف أن يعمل هنا سنة واحدة فقط قبل أن يحال على التقاعد، آخر سنة من حياته، أو آخر شهر فقط، ليرتاح قليلاً.

أنا على يقين من أن المدير العام سوف يوقع على طلبي بالموافقة، هكذا قلبي يحدثني، كل الأمور تسير

على خير ما يرام، والأمر بعد ذلك كله ليس بالصعب، ماذا أطلب أنا؟؟ كل ما أطلبه هو أن أحال على التقاعد، ولا أطلب تغيير وضعي ولا تحسينه، وسكرتيرة المدير تخاطبني دائماً يا عمي، ولكن لماذا نام طلبي ثلاثة أشهر؟ من أجل توقيعين أو ثلاثة، هل يستغرق الأمر هذا الزمن كله؟ على كل حال ثلاثة أشهر ليست مشكلة، لقد انتظرت العمر كله، والسكرتيرة وعدتني أن تعرض عليه طلبي فوراً، وأن تأخذ منه الموافقة مباشرة، هي لم تقل الموافقة، وإنما قالت النتيجة، وهاهي تخرج من مكتبه.

- هل في الإمكان أن تنتظر يا عم ربع ساعة فقط

- أنتظر لأجلك سنة

- لا، لا يا عم، ربع ساعة فقط، السيد المدير يدقق في الأوراق، وينظر في طلبك، على كل حال سأطلب لك قهوة.

- ما أروع أن يكرم المرء في أواخر عمره، حقاً عانيت كثيراً وصبرت، وممرت بمواقف ذل كثيرة، ذقت فيها الهوان والقهر، لا أعاد الله تلك الأيام، ولكن لا بأس، موقف التكريم هذا ينسيني تلك المواقف كلها، ليتني خدمت ستين سنة، لا أربعين، في الحقيقة الناس كلهم طيبون ورائعون.

-4-

- مرحبا يا عم.

- أهلاً يا بني.

- أين الآنسة منى؟
- هي في الداخل عند السيد المدير، تفضل انتظر

ما أروع الشباب؟ للشباب دائماً حكمه الخاص، وقوانينه التي يصنعها هو بنفسه، هو الحياة، كل ما يفعله هو القانون والحياة، ليتني الآن كنت في عمرك يا بني، ولكن ما الفائدة؟ أوليتك جئت قبل ساعة لانتظرت مثلي أمام باب المديرية، ولكنت أمضيت الوقت في الحديث معك، لاشك أنك لست مثلي قادماً من أقصى الشمال، أو من مدينة أخرى، لو كانت السكرتيرة هنا، لنهضت له، ومدت له يدها تصافحه، هل جاء ليقابلها أم ليقابل المدير؟ لاشك أنه جاء ليقابلها هي، وما حاجته إلى المدير؟!

- ما هي مشكلتك يا بني؟
- أنا وظف بالوكالة، وأسعى إلى تثبيتي
- وما وظيفتك؟
- بصراحة، ليس عندي شهادة
- ولماذا؟
- قصة طويلة
- وما وظيفتك؟ إذن؟!
- آذن

آذن؟ آذن؟ يا إلهي؟ شاب كالورد، وسوف يعمل آذناً؟ يسعى إلى تثبيته وأنا أسعى إلى الإحالة على التقاعد؟ آذن يولد وآذن يموت؟ يا إلهي.

- اسمع يا بني، أنا آذن، كنت في مثل عمرك لما بدأت العمل في وظيفة آذن؟ واليوم أنا في الخامسة والستين، أتابع طلب إحالتي على التقاعد، أربعين سنة أمضيت، وأنا آذن، أكثر من عشرين فرصة سنحت لأغير وضعي، ولكن كل المديرين ما وافقوا، كل مدير إذا علم بمحاولتي كلفني بعمل أصعب.

- ماذا نفعل يا عم ظروف الحياة أحياناً تقسو علينا

- لا يا بني، لا تفعل هذا، نحن، أنا وأنت، كلنا نصنع ظروف الحياة، هكذا تعلمت، يا بني، صحيح ما عندي شهادة، ولكن الأيام علمتني، أنا يا بني تعلمت، ولكن ما استطعت أن أفعل، وأنت يا بني ليس من الضروري أن تظل أربعين سنة مثلي في وظيفة آذن حتى تتعلم، لا، يجب أن تغير وضعك، مهما كانت الظروف، أنا أقول لك، اسمع مني، اضرب ضربتك، ولا تنتظر، أنا انتظرت أربعين سنة، جنيت فيها على نفسي، وعلى أولادي، كل يوم كنت أقول لنفسي: "غداً يذهب هذا المدير ويأتي من هو أفضل منه" ولكن كان يذهب الواحد ويأتي الآخر، والآتي أسوأ من السابق، والعمر كان يذهب، ليس عمري أنا فقط، بل عمري، وعمر أولادي من بعدي، وحتى الآن كما ترى، ما أزال أنتظر، على كل حال هذه السكرتيرة تخرج حاملة مصنف معاملتي

- أرجو ألا أكون قد تأخرت عليك يا عم

- لا أبداً، الحقيقة هذا الشاب آنسني كثيراً في غيابك، وأنساني مشكلتي
- لا بأس، تفضل هذا مصنف المعاملة كلها
- والنتيجة؟
- اقرأ الحاشية التي وضعها السيد المدير
- ولكن يدي ترتعش، ولا أستطيع أن أقرأ
- مع عدم الموافقة
- والسبب؟
- عندك سنتان كنت فيهما تعمل بالوكالة، ولم تضم هاتين السنتين إلى الخدمة
- وهل في الإمكان ضمها الآن
- في الحقيقة ممكن، ولكنك تحتاج إلى استثناء من المدير، وهو نفسه كما رأيت غير موافق
- ولكني بلغت الخامسة والستين
- أيضاً هذا عمرك التخميني، فأنت لم تكن مسجلاً، ولجنة تقدير الأعمار هي التي قدرت عمرك
- أرجو أن تسمحي لي بقابلة السيد المدير
- أنا آسفة، فهو على موعد الآن مع هذا الشاب، يجب أن أدخله إليه
- أرجوك أن تبلغي السيد المدير رغبتي الشخصية بمقابلته، ولاشك أن الشاب سيغفر لي تأخيره قليلاً
- سأحاول

-5-

هل رأيت يا ابني؟ هذا هو الذل، وهذا هو الهوان، ولكني أستحق ذلك كله، أنا أستحق ما هو أسوأ، هل تعرف، أول مدير عملت عنده، في مكتبه، وكنت في الوكالة، أجبرني على غسل نفاضة السكائر ثلاث مرات، وحين أحضرتها إليه نظر إلى من وراء نظارتيه السوداوين، وقال: "اغسلها مرة أخرى، بالصابون"، وحملتها وخرجت، وأمام المغسلة وقفت أغسلها بالصابون، وكان فوق المغسلة مرآة، نظرت على صورة وجهي فيها، ثم حملت النفاضة وضربت بها المرآة، ولعنت أمي وأبي وحياتي كلها، ولذلك تراني الآن معك، ههنا، أنتظر، لو أني ضربت بها وجهه، لما كنت رأيتني هنا، كنت عملت في أية مهنة أخرى، وكسبت لقمة عيشي، وضمنت مستقبل أولادي.

- ولكن يا عم

- ماذا تريد أن تقول، السجن، لا بأس، أعرف ما تريد قوله، ليتني كنت فعلت ذلك، فانا الآن على يقين من أني لو كنت ضربت بها وجهه لما كان تجرا لا هو ولا مدير آخر غيره على ظلم آذن مثلي أو مثلك، ليتني فعلت ذلك، لكني كنت أعمل بالوكالة، وأسعى إلى تثبيتي، كما تسعى أنت الآن، ذلك هو خطئي، ولذلك تراني الآن هنا معك، انتظر، ولكن يبدو أن الإنسان لا يتعلم إلا في وقت متأخر، وحين يتعلم يكون قد فقد القدرة على الفعل. ولذلك

قلت لكي ابني من قبل ليس من الضروري أن تظل أربعين سنة في وظيفة آذن حتى تتعلم.

- ولكن يا عم

- آه، آه، عرفت، لا تقل أي شيء، يبدو أنه لا فائدة، أنت تشبهني يوم كنت في عمرك، لا فائدة، لا تؤاخذني يا بني، تكلمت كثيراً.

-6-

- طمئنيني يا بنتي، هل وافق على مقابلتي؟

- لم يوافق

- حتى على مقابلتي لم يوافق؟

- قال إنه يعرف، ويعرف أن مثلك لا يشيخ، ولو بلغ الخامسة والستين، ولذلك يريد أن تستمر في الخدمة سنتين أخريين

- ولكن كيف عرفني من غير أن يراني؟

- طلب مني أن أذكرك بنفاضة السكائر

- بالله عليك قولي: هل قال لك ذلك وهو ينظر من وراء نظارتيه السوداوين، وشعره الأسود منفوش إلى فوق؟

- لا، كان ينظر إلي من وراء نظارتيه الفضتين، وشعره كان منفوشاً إلى فوق، ولكنه أبيض، وليس أسود

- عبد الملك عبد الجبار هو المدير؟

- نعم

- لا بأس، لا بأس، لن أغضب، هذا متوقع منه، أنا أعرف جيداً، الحق علي أنا، شكراً لك يا بنتي، شكراً لك، لا تؤاخذين، واعذرني يا بني لتأخيرك، لاشك أنك الآن فهمت كل شيء، بل لاشك أنك قد تعلمت أيضاً، أرجو أن تروي للآنسة بعد مقابلته كل ما رويته لك، شكراً شكراً لكم جميعاً، أنتم طيبون، أنتم طيبون ورائعون جداً، طبعاً ماعدا المدير العام، شكراً لكم.

العطر الفاخر

في عصر يوم ربيعي دافئ كان الناس قد بدؤوا بالخروج من منازلهم إلى الشوارع قاصدين السواق والمحلات والحدائق للنزهة والتفرج وشراء بعض الحاجات، وبدأت الأرصفة تمتلئ شيئاً فشيئاً بالغادين والرائحين.

وكان الطلاب قد بدؤوا بالخروج من مدارسهم منصرفين من دوام يوم ممل ثقيل، وهم لا يعرفون كيف يحملون كتبهم، وكأنهم يريدون رميها أو التخلص منها.

وفي ذلك الوقت أيضاً خرج المعلم وحيد من مدرسته، يحث خطاه، غير مبال بالطالبات والطلاب، وهم يرمقونه، مستغربين خطواته العجلى، وأناقته المفرطة، وواضح جداً أنه سرح شعره الأشقر الناعم في غرفة المدرسين، قبل خروجه، وسوّى ربطة عنقه، وشدها على قميصه الجديد، التي لا تزال آثار طيِّه واضحة. وبعد بضع دقائق دس في بنصر يده اليمنى خاتماً ذهبياً متألقاً، كان يخفيه في جيبه الداخلي، إذ كان يخجل من وضعه في إصبعه أمام طلابه وطالباته، وكان قد وصل إلى أفخم شارع من شوارع المدينة، مشهور بمحلاته الراقية، التي تبيع أفخر أنواع العطور والأقمشة والثياب النسائية وأدوات الزينة، وهو الشارع الذي غالباً ما يكون غاصاً بالصبايا الحسان، جئن لشراء حاجاتهن

أو للتنزه، فيقصد الشباب أيضاً لحاجات أخرى في أنفسهم.

وقد يظن من يراه وهو في ذلك الشارع، وبمثل تلك الأناقة، أنه جاء ليتعقب الفتيات كما يفعل أكثر الشباب، ولكن خطواته السريعة، والخاتم الذي في بنصر يده اليمنى، ينفيان ذلك.

ولم يكد يبلغ منتصف الشارع حتى التقى صديقه وسيماً، وهو أعز صديق لديه، بل هو صديقه الوحيد، حتى أصبح كل منهما معلماً، ولا يكاد يُطلع أحداً على أسراره سوى وسيم، وقد فرح بلقائه، ووقف يتحدث إليه على الرغم من أنه في عجلة من أمره، وكان وسيم هو الذي بادره الكلام ممازحاً:

- آه، ماذا تفعل هنا يا وحيد، أنا ليس عندي خطيبة فمن حقي أن أتمشى في هذا الشارع، أتعقب هذه أو تلك، ولكن أنت يا وحيد لا يحق لك.

- لو عرفت قصدي، لباركت مجيئي إلى هنا، وأيدتني.

- وما قصدك؟

- جئت لأشتري زجاجة عطر لوفاء.

- زدتني قهراً يا وحيد، لن أبارك مجيئك إلى هنا، ولن أؤيدك.

- ولماذا؟

- زجاجة عطر؟ ومن هذا الشارع؟! ومن هذه المحلات؟! أمرك غريب يا وحيد، ألا تعلم أنك قد تدفع هنا نصف راتبك ثمن زجاجة متواضعة.

- أنت تبالغ.

- هذا هو الواقع، انظر بنفسك.

- على كل حال، ألا يحق لنا أن نستخدم مثل هذه العطور؟

- لا يا وحيد، من الأفضل أن تشتري لخطيبتك حاجة أخرى أكثر ضرورة، إذا شئت ذهبت معك إلى السوق في الحي الشرقي، لي صديق هناك يبيع الثياب، يمكنك أن تشتري ثوباً بسعر معقول.

- لا، أنا مصمم على شراء زجاجة عطر.

- لا بأس، تشتري واحدة من هناك.

ونفحت أنف المعلم وحيد أشذاء عطر ناعم، والتفت إلى فتاة تمر بقربه، أتبعها نظره، ثم قال لصديقه وسيم:

- أمنيتي أن أشتري زجاجة عطر أوربي من هذا الشارع، لتكن مرة واحدة في العمر، مرة واحدة هي الأولى والأخيرة، كل هؤلاء الناس يشترون مثل تلك العطور، هل أنا أدنى منهم، أرجو أن تدخل معي إلى إحدى المحلات لشراء زجاجة.

احمرت حدقتا وسيم، انتفخت عروق رقبته، ثم قال:

- أنا آسف يا وحيد، لا أستطيع أن أذهب معك، ولا أستطيع الآن قول شيء آخر، ولكني سأراك فيما بعد، وسنتحدث طويلاً.

ثم تركه ومضى.

وتابع وحيد خطاه، وهو ينظر إلى ساعة يده، لا بأس، لن أتأخر على وفاء، لاشك أنها تنتظرني الآن، وسوف تفاجأ بالهدية.

وأمام أحد المحلات الفاخرة، لبيع العطور الأجنبية، يقف المعلم وحيد، مشدود ربطة العنق، وعيناه تنظران إلى زجاجات العطر الأنيقة المعروضة في أشكال مغرية، وهو يبحث عن أجمل زجاجة عطر، ويقرأ السعر المثبت عليها، ويحاول قراءة الاسم المكتوب بالفرنسية على الزجاجة، وهو على يقين من أنه لن يحسن لفظه بصورة صحيحة أمام البائع.

وينتبه إلى صورته المعكوسة في الزجاج، فيسوي ربطة عنفه، ويشدها، يمسح شعره بيده، ثم يمد النظر إلى الزجاجات المعروضة، فيراها هذه المرة من خلال صورته المعكوسة في الزجاج، فيحس بالنشوة.

وفي داخل المحل كان يراقبه الفتى عماد، ثم ما يلبث أن يمضي إلى عمق المحل، لفيهمس لفزميله باسم، القاعد وراء صندوق المحاسبة:

- مراقب التموين، يتفحص الأسعار، هل رأيته؟

فيرد عليه باسم بهدوء:

- لا تخف، انتظر حتى يدخل إلى المحل.
- ولكن المعلم أبو قاسم ليس هنا، ماذا يمكننا نحن أن نفعل.
- قلت لك لا تخف، أستطيع أن أتصرف أنا وحدي.

ويخطو المعلم وحيد إلى داخل المحل، وعيناه معلقتان بالزجاجات المعروضة على الرفوف، وقد أرخى حقيبة يده، حتى أنها تكاد تفلت من بين أصابعه.

ويهمس باسم إلى عماد:

- قلت لك لا تخف، هذا معلم مدرسة يريد شراء زجاجة عطر لخطيبته.

وينظر إليه عماد في ذهول وقد اتسعت حدقتاه، فيقول له باسم: سوف تتعلم يا عماد، انظر إلى الخاتم في بنصر يده اليمنى، ولاحظ أوراق الامتحان ذوات الزوايا السوداء الظاهرة من طرف حقيبته التي زال عنها لونها وتعطل قفلها، على كل حال اترك لي هذا الصيد.

ثم نهض من وراء صندوق المحاسبة، في هدوء ونعومة، ويتقدم منه في بطء، كالقط، ليقول في صوت رقيق:

- أهلاً أستاذ، تفضل، ماذا اخترت؟! أي زجاجة؟

ويشد وحيد إلى صدره حقيبته، ويعقد عليها يديه، وهو ينقل نظره بين الزجاجات، وقد فوجئ، وكأنه ما كان منتبهاً لأحد من قبل، فيجيب بتلعثم:

- آه، مازلت أفكر، في الواقع أنا متردد

- تريد زجاجة لك؟ أم هدية؟
- لا، ليست لي، هدية.
- وهل الهدية لسيدة أم لرجل؟
ويزداد تلعثم المعلم وحيد:
- لسيدة، نعم، لسيدة، أقصد.
ويقاطعه باسم بخبث:
- آه، فهمت، تريد زجاجة عطر هدية للسيدة الوالدة بمناسبة عيد الأم.
- لا، لا، بصراحة لفتاة، أقصد لخطيبتي، ولا أعرف ماذا سأختار لها.
ويلتفت باسم إلى عماد ليغمز له، مؤكداً صدق حدسه، ثم يقول للمعلم وحيد: "لا تهتم، اعتمد على ذوقي، وأنا سأختار لك".
وتمتد على الفور يد باسم إلى خزانة خلفية مغلقة، ويفتحها، ليخرج منها زجاجة عطر صغيرة ناعمة، يضعها أمام وحيد قائلاً:
- هذا الصنف خاص جداً، ولا تأتينا منه في السنة سوى ثلاث أو أربع قطع، نحتفظ بها خاصة للشباب من أمثالك، أصحاب الذوق الرفيع.
ويحوم وحيد بأنظاره حول الزجاجة، ثم يسأل:
- وكم الثمن؟
- هذه القطع بصراحة يحملها إلينا أصدقاؤنا من باريس، في حقائبهم، وليست من النوع التجاري، حتى

المعمل هناك لا يصنع منها في السنة سوى مئة قطعة، ونحن في الواقع لا نبيعها وإنما نقدمها على سبيل الهدية، إنما نأخذ ثمنها المدفوع هناك فقط، ولا نربح أي قرش

- وكم تكلف؟

- كما قلت لك، لا نربح سوى السمعة الحسنة للمحل، هذه كلفتها الخالصة ستمئة ليرة فقط، وإذا شئت عرضت عليك الفواتير.

لاشك أن المعلم وحيد لم يسمع الجملة الأخيرة، وكانت أصابعه على وشك أن تمتد إلى الزجاجة، ولكنها تقلصت، وابتعدت عنها، وبنوع من ردة الفعل العفوية، والمباشرة، أشار إلى زجاجة من وراء باسم، أكبر من تلك الزجاجة بنحو ثلاث مرات، تمكن من أن يقرأ السعر المثبت عليها، ولذلك أشار إليها على الفور، وقال:

- أريد هذه.

وامتدت يد باسم إلى الزجاجة التي أشار إليها المعلم وحيد، فحملها بنعومة مفرطة، ثم لفها بجمع يده، ولم يقدمها إلى وحيد، وإنما احتضنها إلى صدره، ثم قال:

- والله أنت صاحب ذوق رفيع، وقلب طيب، هل تعلم، هذه الزجاجة من إنتاج المعمل نفسه الذي ينتج تلك الزجاجة، وهي من نفس نوع العطر، ولا يختلف في غير الاسم، أنت من غير شك تعرف أن الشركات الأجنبية تدفع الآلاف من أجل الدعاية، ولذلك ترفع أسعار البضاعة، من أجل الاسم فقط.

ثم وضعها أمامه إلى جانب الزجاجة الأولى، وقال:

- هل تريد أن أفتح لك الزجاجتين حتى تقارن بينهما؟ طبعاً أنت تعرف أن الزجاجات تأتي من أوربة مختومة.

- لا، لا، شكراً، لا تفتحها.

وأعاد المعلم وحيد النظر إلى السعر المثبت عليها، تأكد منه، ثم نظر إلى ساعة يده، لاشك أن وفاء تنتظرك الآن، لا تتأخر، هيا ادفع الثمن، حقق أمنيتك، أنت تشتري كل يوم زجاجة عطر، ولا كل شهر، ولا كل سنة، هيا الآخرون ليسوا أفضل منك.

وهمس له باسم.

- أنا أنصح لك بهذه الزجاجة، وقد اخترتها أنت بنفسك، قلبك هو الذي دلك عليها هل ألفها لك بورق يناسب الهدية؟

وأشار المعلم وحيد برأسه موافقاً.

وعلى الفور التفت باسم إلى عماد، وقال له:

هات ورق النوع الأول، من الداخل، الذي نخبئه لأصحابنا.

ومضى عماد إلى الداخل، على حين امتدت أنامل باسم إلى البطاقة الصغيرة التي تحمل سعر الزجاجة، وهو مئتان وخمسون ليرة، وأخذ في نزعها، قائلاً: "هذه الأسعار النظامية نضعها من أجل مراقبي التموين فقط، أقسم لك أننا اشترينا هذه الزجاجة بمئتين وتسعين ولكننا

مضطرون إلى وضع السعر النظامي عليها، ماذا يمكننا أن نفعل؟؟"

وكان عماد قد أحضر الورق من الداخل، فناوله باسم الزجاجة، وقال:

- لف هذه الزجاجة للأستاذ، واعقد حولها ربطة جميلة.

ثم التفت إلى المعلم وحيد، وهو يقول:

- هل تعرف؟ خلال أسبوع واحد بعنا أربعين زجاجة من هذا النوع، لم يبق سوى ثلاث زجاجات فقط، أنا في الحقيقة سعيد جداً لحسن اختيارك لهذا النوع، وأنا أهنئك، ولاشك أن الخطيبة ستكون مسرورة جداً.

وبيد مستسلمة قدم المعلم وحيد إلى باسم قطعة نقدية قيمتها خمسمئة ليرة، هي أقل من ثلث راتبه، نظر إليها باسم وهو يصطنع الحيرة والتردد، وقال:

- أرجو أن تعطيني ثلاثمئة ليرة فقط، لأني لا أريد أن أربح سوى عشر ليرات فقط، ولا أظن أني سأتمكن من رد البقية إليك، فليس في الصندوق ما يكفي، نحن لم نفتح المحل إلا منذ دقيقتين فقط، كنا كما تعلم في عطلة الظهيرة.

وأحس المعلم وحيد بالحرج الشديد، فقد كانت تلك الخمسمئة هي كل ما تبقى من راتبه، وليس في جيبه بعد ذلك سوى بضع قطع نقدية صغيرة، لا تساوي شيئاً.

وبعد شيء من التردد، أخذ باسم القطعة النقدية، ومضى إلى صندوق المحاسبة، فتحه، ووقف وراءه هنيهة، وفي تلك الأثناء كان عماد قد فرغ من لف الزجاجة بالورق وعقد حولها ربطة وردية، فتقدم من المعلم وحيد وقدمها إليه:

- بالسعادة والسرور يا أستاذ.

فتناولها المعلم وحيد، وغمغم:

- شكراً.

ورجع باسم يحمل النقود بين يديه، وهو يظهر الاعتذار والأسف الشديدين:

- أنا آسف جداً يا أستاذ، في الواقع لم أجد في الصندوق سوى مئة وتسعين ليرة، تبقى لك عندنا عشر ليرات، يمكنك أن تمر بنا في أي وقت آخر لأخذها، أو إذا شئت أترك معك الخمسمائة، ويمكنك أيضاً في أي وقت آخر أن تدفع ثمن الزجاجة.

وشحبت وجنتا المعلم وحيد، ومد يده إلى باسم، وتناول منه بقية النقود وهو يقول:

- أترك عشر ليرات للشباب.

فقال له عماد على الفور:

- شكراً يا أستاذ.

واستدار المعلم وحيد، ومضى يجر خطاه، وهو يحمل بيده اليمنى حقيبته، وقد تركها مرخية تتدلى،

وكأنها تكاد تسقط على الأرض وشد قبضة يده اليسرى على زجاجة العطر.

وحين غادر المعلم وحيد المحل، وقبل أن ينغلق الباب الزجاجي وراءه كل الانغلاق كانت قد ترددت في الداخل أصوات قهقهات عالية، لعل بعضها وصل إلى أذنيه، ولكنه لم يسمعها، فقد نظر إلى ساعة يده، وهو يغادر المحل، ثم أخذ يسرع الخطا نحو بيت خطيبته.

وهو ماض على الرصيف بين الغادين والرائحين، كان يفكر فيما يدفعه هؤلاء كل يوم من أثمان العطور، وفيما تبقى معه من راتبه، وهل في الإمكان أن يكفيه بقية الشهر؟ ولم يكن في مخيلته سوى صورة ذلك البائع اللبق الظريف، ذي الأسلوب الممتع في الكلام، ويتمنى لو كان في إمكانه شراء الزجاجة الأولى التي نصح له بها.

وحين صار أمام بيت وفاء كان جسمه ينضح عرقاً، واستقبلته خطيبته وأمها، ورحبتا به، وقدم إلى وفاء الهدية، فشكرته، ثم فكت العقدة وفتحت الورقة فدهشت لجمال الزجاجة وأدركت كم هي غالية، وعبرت عن سرورها الشديد، ثم قالت:

- لن أستعملها، سأخبئها إلى العرس.

وفكر في أن يقول لها: استعمليها، سأشتري لك واحدة أخرى، غيرها. ولكنه لم يجرؤ على ذلك، واضطر إلى مسح عرقه المتصبب من جبينه.

وعلقت الأم قائلة:

- لا أريد أن تكلف نفسك عناء مثل هذه الهدايا الغالية، فأنت مقدم على الزواج، وأمامك متطلبات كثيرة، على كل حال نحن نشكرك، ونقدر ذوقك الرفيع.

ووجد في كلام الأم ما يشجعه على الحديث، وأخذ يتكلم محاولاً تقليد أسلوب الذي يتكلم به البائع، فحدّث خطيبته وأمها عن الزجاجة والمعمل، وأضاف إلى أوصاف الزجاجة التي اشتراها بعض أوصاف الزجاجة التي حدثه عنها البائع، واستعاد بعض كلماته وجمله، ولكنه كمن يلقي على طلابه درساً هو نفسه لم يفهمه.

ورن جرس الباب، وإذا هدى صديقة وفاء قد أحضرت إليها مجلة الأزياء التي كانت قد طلبتها من قبل، لتختار منها زي ثوب تريد خياطته، وحين علمت هدى بوجود خطيب صديقتها اعتذرت، وصممت على أن ترجع، ولكن وفاء أبت إلا أن تدخل، فقد وجدت في زيارتها مناسبة لتقدمها إلى خطيبها، وتريها هديته الرائعة، إذ كانت هدى من قبل قد قدمت وفاء إلى خطيبها هي، وأطلعتها على بعض هداياه.

وأبدت هدى إعجابها الشديد بالهدية، ثم قالت:

- الحقيقة ذوق خطيبك يا وفاء رائع جداً.

ثم التفت إلى وحيد، وقالت له:

- أنا أهنئ وفاء بك، يا أستاذ وحيد، كما أهنئك بوفاء.

وشكرها المعلم وحيد، وقد أدهشته ذلاقة لسانها، وذكرته بالبائع، وأسلوبه الممتع في الحديث، وحاول أن يقول شيئاً، فتلعثم، ثم قال:

- أرجو أن تكون الهدية قد أعجبتك؟

فأجابت على الفور:

- آه، إنها رائعة، وبصراحة، أمس نزلت مع خطيبي إبراهيم على السوق، وفي عزمه شراء زجاجة عطر لي، وكنت أخشى أن يمضي إلى شارع المحلات الفاخرة ليشتري زجاجة غالية ليتظاهر أمامي بالكرم، ولكنه أعجبني كثيراً حين مضى بي فوراً إلى السوق الشعبي في الحي الشرقي، وهناك اشترى لي زجاجة مثل هذه تماماً، وهل تعرفين يا وفاء كان السعر المكتوب عليها مئة ليرة، ولكن إبراهيم استطاع بذكائه ومساومته للبائع أن يشتريها بخمس وثمانين ليرة فقط، ولاشك أن الأستاذ وحيد اشتراها بمثل هذا السعر أيضاً.

وكانت هدى تتكلم بعفوية وطلاقة، غير منبهة إلى الورق الفاخر الذي كانت الزجاجة ملفوفة به، على حين كانت وفاء وأمها مطرقتين في صمت، تحاولان تجنب النظر إلى المعلم وحيد، وهو يمسح جبينه الناضح بالعرق.

زيارة

خرجت سعاد من مدخل البناء، فسفعتها ريح باردة، فقد هجم الشتاء هذا العام باكراً، شدت على جسمها معطفها القديم، وقد أصبح ضيقاً، ومشت مطأطئة الرأس، تتجنب مجابهة الريح بوجهها.

سارت بخطوات حثيثة حتى بلغت موقف الحافلة، فوقفت في ظل جدار تنتظر.

من رطوبة القبو إلى برودة الشارع خرجت، وهي تحمل في حقيبة يدها الصغيرة تعويض الإضافي الذي قبضته يوم أمس، بعد انتظار ثلاثة أشهر، وقد ضمت إليه المبلغ الضئيل الذي استطاع زوجها ادخاره في أشهر الصيف، ومجموع المبلغين لا يصل الألف وخمسمئة ليرة، هل تستطيع به شراء مدفأة جديدة بدلاً من المدفأة التي حملها زوجها إلى المصلح في الشتاء الماضي مرتين؟! على الرغم من محاولاته المخفقة هو لتصليحها في البيت بنفسه، ويبدو أنها لن تصمد أمام هذا الشتاء، ولو حملت إلى المصلح ثلاث مرات أخرى.

بسام عنيد، لا يريد شراء مدفأة جديدة، يفضل شراء ثياب للأولاد، ولكنني مصرة، سأشتري مدفأة تعمل بالغاز، لن يكون ثمنها أكثر من ألفي ليرة، اليوم لن أشتري، سأكتفي بزيارة المحلات والفرجة على المدافئ المعروضة، غداً أنزل معه إلى السوق فنشتري

واحدة معاً، قد نشتريها بالتقسيط، ما تعودت في الواقع شراء حاجة وحدي، دائماً بسام معي، لابد من الإقرار، أنا نادمة، صممت في عناد أن نخرج اليوم، وهو متعب، قال: اقعدي في البيت لنمضي الوقت معاً في تربية الأولاد أو متابعة التلفزيون أو المطالعة، اقترح علي إعداد طعام ليوم غد، لا، سنتناول غداً المعلبات، كان هو عنيداً، وكنت أنا عنيدة، لا، لن أرجع إلى البيت، سأذهب إلى السوق، وليبق هو في البيت، ليقرا، ليأكل، لينام، ليفعل ما شاء، كم الوظيفة مملة؟! لو كنت أعمل بائعة في محل نوفوتيه، لبقيت فيه حتى المساء، أسوأ أوقاتنا نحن الموظفين هو المساء، لا نعرف كيف...

- سعاد، سعاد.

نداء يقصدها هي بالذات، في زحمة الموقف، الغاص بالمنتظرين، يتسرب إليها من نافذة مفتوحة في سيارة بويك سوداء، تتنبه إلى الصوت وتستعيد في وعيها صورة سيارة كانت قد مرت أمامها، ولمحت وراء مقودها وجهاً ظنت أنها تعرفه، وقد وقفت السيارة بعيد الموقف، ثم رجعت إلى الوراء، وهاهي ذي صديقتها رباب تناديها.

أجل، هي هي رباب نفسها، كيف لم أعرفها حين لمحتها وراء المقود، رباب هي التي عرفتني، ولكن ما هذا المجد؟! سيارة بويك، ورباب نفسها وراء المقود، في أناقة مفرطة، كأنها ذاهبة على حفل، لم

تتغير، ولم تكبر، كأنها ما تزال زميلة الأمس، طالبة السنة الأولى، دون العشرين، على الرغم من مضي عشر سنوات؟!

- تفضلي، تفضلي سعاد.
- شكراً يا رباب أخشى ألا يكون طريقي هو طريقك
- لا تخشي شيئاً، تفضلي.
- لا أريد إتعابك.
- لا تعب في وجود السيارة، تفضلي.
- شكراً لك.

المقعد الناعم يحتضنك، والشارع ترينه من وراء زجاج السيارة مختلفاً جديداً، كأنك ما رأيته من قبل، ومن حولك الدفء والعطر، ورباب ما تفتأ ترد شعرها إلى الوراء بيدها، وقد أرسلته طويلاً على كتفيها، الحركة نفسها التي لفتت نظرك منذ المحاضرة الأولى عندما التقيت بها في كلية الحقوق في البدء حسبت أنها تفتعل ذلك، ثم تأكد لك أن تلك الحركة هي عادة، وقد كرهت تلك العادة، وقررت قص شعرك وعدم إرساله أبداً، كرهت حركتها، وكرهتها، التقتك مرة بعد زواجك من بسام، هنأتك قائلة: اخترت زميلاً كانت كل الزميلات يفكرن في اختياره، كانت حاسدة، أو ناقمة، أو مبالغة، ما استطعت الوصول إلى يقين، أكد لك بسام أن رباب

بالنسبة إليه زميلة عادية، مثل باقي الزميلات، واليوم، لماذا ركبت إلى جانبها؟! كان يجب أن تعتذري.

- كم ولداً أصبح عندك سعاد؟!
- ثلاثة.
- أوه، هذا كثير، ولم يمض على زواجك سوى ثماني سنوات، كما أعرف، أنا بصراحة، لا أفكر في إنجاب الأولاد إلا بعد مضي خمس سنوات.
- نسيت أن أبارك لك في زواجك.
- شكراً يا سعاد.
- متى تزوجت؟!
- منذ نحو سنة.
- أحياناً لا يكون لك في الحمل حيلة.
- لا، كل الحيل موجودة، أوه، نسيت أن أسألك، إلى أين أنت ذاهبة يا سعاد؟!

ليس من الضروري إخبارها بأني ذاهبة لشراء مدفأة، أو أني في خصام مع زوجي، ولا أستطيع الادعاء بأني ذاهبة إلى أحد، وأنا في معطف قديم ضيق مشدود على جسمي، ووجهي شاحب، وهي في ثوب أجنبي متميز جداً، كانت دائماً تحب التميز، زهرات صفراء على أرضية سوداء، والقماش حريري شفاف، الساعدان مكشوفان، على الرغم من

البرد الشديد الذي في الخارج، والصدر مفتوح حتى مابين الثديين، زي بسيط، من غير ثنية ولا زركشة ولا زينة، وهو بعد ذلك فوق الركبتين، يبدو غير مناسب لهذا الجو البارد، ولكن الدفء في السيارة شديد.

- آه، أنا ذاهبة يا رباب إلى السوق، لشراء بعض الحاجات.
- مثل ماذا؟!
- لا أعرف، لم أفكر في شيء محدد؟!
- يبدو أنها أشياء غير ضرورية.
- ربما.
- ما رأيك في زيارتي إذن، لتري بيتي، وتباركي لي في الزواج؟!

*

ما هذه المواجهة المرة يا سعاد؟! أنت وهي وحدكما في المصعد، هي ما تفتأ ترد خصلات شعرها بيدها إلى الوراء، في حركة مملة رتيبة، وتنظر في المرآة إلى ثوبها المفتوح عن صدرها، وقد ألقت على كتفها سترة قصيرة، صفراء اللون، لم تدخل يديها في أكمامها، لقد نظرت إلى معطفك القديم الضيق، وأنت تشدينه على جسمك، قبل نزولك من السيارة، وفور دخولكما في المصعد نظرت إلى وجهك، ثم التفتت إلى المرآة، وهي ترد شعرها إلى

الوراء، لقد خرجت يا سعاد من غير أن تعتني بتسريحة شعرك، ومن غير أن تضعي أحمر الشفاه على فمك، وهو تبدو كالذاهبة إلى لقاء عشيق، ترى من هو زوجها؟! لقد كان بسام زوجك وحبيبك، وما يزال، أنت اخترته بنفسك، ورباب نفسها تحسدك عليه، الحب جمعكما منذ السنة الثانية، ولكن الحمل غيرك، أنت أحلى منها، لو حملت مثلك ثلاث مرات، ولو خرجت من غير العناية بنفسها، لما بدت على مثل ما تبدو عليه الآن، ولا تنسي بعد ذلك الوظيفة وهمومها، كل مساء تقعدان معاً، تتساءلان كيف يضيع راتبك وراتبه، ولماذا تتراكم عليكما الديون، وثمة حاجات كثيرة تنقص البيت، وحاجات أخرى أكثر ألغيتما منذ زمان التفكير فيها.

- كيف بسام يا سعاد؟!
- بخير.
- مازال يحبك؟!
- طبعاً.
- والشعر؟!

مرة أخرى تجدين نفسك غير مضطرة إلى الاعتراف، كان يكتب فيك الشعر، آخر أمسية شعرية كانت قبل التخرج، صرح فيها باسمك في شعره، كانت رباب حاضرة، ولكن منذ سبع سنوات، أو ثمان، لم يكتب إلا بضع قصائد، حتى القصيدة القديمة

لا يعود إلى قراءتها، وكيف يمكن أن يكتب؟! كل مساء تراجعان دفتر الديون والحسابات، بدءاً من اليوم العشر من الشهر تبدأان في عد الأيام المتبقية. تنتظران أول الشهر، كنتما في البدء تفكران بما سوف تشتريانه، وبما سوف يزيد من راتبك وراتبه، ولكنكما سرعان ما أصبحتما تفكران في الديون، كيف تتمكنان من سدادها، وباقي أيام الشهر، كيف ستدبران فيها أمر المعيشة؟! وهي تسألك عن الشعر؟!

- لا يكتب، إلا القليل القليل.

- آه يا سعاد، أنا اشتريت دواوين كل الشعراء، من عمر بن أبي ربيعة إلى نزار قباني، وكلها مجلدة، صنعت لها خزانة فاخرة جداً، ووضعتها في غرفة الضيوف، مع مجموعة من التحف والهدايا النادرة، بصراحة كنت لا أحب الشعر، ولكني بدأت حبه، في كثير من الأحيان أحس بالملل فأتسلى بتصفح الدواوين، وقبل النوم، أقرأ حتى أنام.

*

من غرفة النوم إلى غرفة الضيوف، ومن غرفة الجلوس إلى غرفة الطعام، ومن غرفة الأطفال، للمستقبل، إلى غرفة الخادمة، وهي اليوم في إجازة، ومن المطبخ إلى الحمام، ومن شرفة إلى شرفة، رباب تطوف بك، وكل ركن في الغرف كلها

لا موضع فيه لهدية أو تحفة أو قطعة أثاث، الثغرات كلها مسدودة، ولا شي يمكن أن يضاف، على الإطلاق، كما لو كان الأمر في الصور، بل كما لو كان في معرض لبيع الأثاث.

- انظري يا سعاد،هذا كله من شرائي أنا ،من اختياري وترتيبي، هذا كله ذوقي، هذه اللوحات، وتلك التحف، وهذه الهدايا، هل يعجبك ذوقي؟؟

- جميل.

- تعالي أنظري، هذه هي دواوين الشعر، التي حدثتك عنها، كل الشعراء أحضرتهم إلى هنا، إلى بيتي، بالطبع ما عدا بسام.

- زوجي لم يطبع شيئا من شعره، ولم ينشره.

- هذا صحيح لكنه شاعر.

- شكرا.

- لا، هذه ليست مجاملة يا سعاد، زوجك شاعر، وأنا أدعوك أنت وهو لزيارتنا.

- أشكرك مرة ثانية.

- والآن اسمحي أن أعد لك بنفسي فنجان قهوة، الخادمة اليوم في إجازة،يمكنك إذا شئت أن تبقي هنا في غرفة الضيوف، حتى أعد القهوة.

*

يا خسارة العمر يا سعاد، بلغت الثلاثين، وليس عندك حتى الآن قطعة سجاد واحدة من هذه السجادات التي تفرش أراضي الغرف كلها، راتبك وراتب زوجك لا يكفيان للطعام والدواء والثياب حتى ابنتك نوال تتركينها في البيت مع أخويها الصغيرين، تقفلين الباب عليهما، وتذهبين إلى الوظيفة، لا يمكنك إرسالهما إلى دار الحضانة، وإلا ذهب راتبك كله، من أين لرباب هذا كله؟ وشهادتها معلقة على الجدار داخل إطار مذهب، وهي لا تعمل، أبوها محام شهير، ولكن لا يعقل أن يمولها بهذا كله، وهي تدعي أنها اشترت كل شيء بنفسها، واختارته، وأنت عليك أن تثبتي كل يوم كفاءتك في العمل لكل زملائك من الموظفين والموظفات وأن تنجزي كل المعاملات، ومع ذلك لا يرضى عنك المراجعون ولا المدير العام؟ كانت أمنيتك أن تعملي وبسام في القضاء، ولكن رضيتما أخيراً بوظيفة عادية في إدارة بسيطة، وهو يرجع متعباً، وأنت... وجرس الهاتف اللعين يذعرك.

- الهاتف، الهاتف يا رباب.

- حاضر، حاضر، أنا آسفة يا سعاد، تأخرت عنك قليلاً، تفضلي القهوة، تأخرت قليلاً في تبديل ثوبي، أرجو أ ن يكون قد أعجبك.

- جميل، ولكن الهاتف.

- لا تقلقي، الهاتف يرن في اليوم عشرات المرات، والجميع يعرفون عادتي، لا أرفع السماعة إلا قبل انتهاء الرنين.

وهذه هي عادتها أيضاَ، لا تتخلى عنها، تتناول السماعة بيد، وترد خصلات شعرها إلى الوراء بيد، وتريد الظهور كل ساعة بثوب، كانت تأتي إلى الكلية كل يوم في ثوب جديد، وإذا كانت من قبل لا تستطيع الحضور إلى الجامعة في أثواب تكشف عن جسمها، فإنها اليوم ترتدي ما تشاء، أنا لا أرتاح لمثل هذا الزي، ولا أفكر فيه ولا سيما اللون الأصفر، لا يعجبني، الثوب قطعة واحدة، لا ثنية ولا زركشة، يبدو بسيطا، ولكنه معقد كل التعقيد، مغلق عند الصدر، حتى العنق، وثمة طوق من القماش نفيه يلف الجيد، والظهر مكشوف في شكل مثلث يمتد رأسه حتى الحوض، ويلتف على الفخذين في ضيق شديد، وهو يعلو الركبتين في أكثر من الشبر، ثم يكشف بعد ذلك عند البطن في شكل قلب مفرغ، وحتى الظل على الجفنين غيرته بسرعة إلى الأصفر، وشبكت في الشعر فوق الأذن اليسرى وردة من شمع أصفر، أنل ما فكرت في هذا قط، ولا أظنه ينال رضا بسام، وهي ما تفتأ ترد شعرها إلى وراء، وتتثنى مزهوة بثوبها، وتصطنع الضحك في ردها على الهاتف.

-أهلا دكتور منير، آه، لم أكن في البيت، والخادم في إجازة، رجعت من دقائق فقط، هل تعرف، مر أسبوع لم تتصل؟! أنا بخير، لا، الصحة جيدة، ولكن يجب أن أراك، لا، لم يأت، اتصل بي يوم أمس من روما، كان سيأتي أخر هذا الأسبوع، ولكنه ألغى الحجز، وأجل عودته إلى الشهر القادم، لا، لا أحد، عندي صديقة، كما تشاء، تعال فورا، أعرفك عليها، يجب أن أراك، أنا بانتظارك، إلى اللقاء.

- شكرا للقهوة يا رباب، وأرجو أن تسمحي لي بالعودة إلى البيت ؟

- آه، لماذا أنت مستعجلة؟! ابقي، سوف يأتي الدكتور منير، هو صديق زوجي، والطبيب الذي يرعى صحتي.

- شكرا، يجب أن أرجع إلى البيت.

- أهلا بك يا سعاد، وأرجو أن تزوريني دائما، أنت وزوجك بسام، ولا تنسي هو زميلي أيضا، مثلما أنت زميلتي.

- هذا صحيح.

- وبالمناسبة فإن زوجي يحب الضيوف كثيرا ويرحب بهم، ويسعد بلقائهم، وأنا كما رأيت دائما وحدي.

- ما عمل زوجك يا رباب؟!

- آه، أنا آسفة نسيت أن أحدثك عن زوجي، على كل حال تفضلي، هذه بطاقة باسمه، وفيها رقم هاتف المنزل.

- شكرا.

زوجي يا سعاد تاجر، ينتقل بسين عواصم أوربة، وهو كما سمعت أثناء ردي على الهاتف، يحضر أسبوعا، ويغيب شهرا أو شهرين .

- وأنت ؟!

- أنا، آه، أنا؟! في غاية السعادة، زرت باريس ولندن وروما واسطنبول، ولكني مللت من التنقل معه، ففضلت البقاء هنا، الوطن هو الأول يا سعاد.

- ولكن يا رباب الوحدة صعبة؟!

- لا، لا، وقتي كله مملوء بالعناية بالبيت.

- وهو؟!

- لا يهمني كيف يعيش، يكفي أني أعيش هنا كما أشاء.

*

في المصعد، وهو يهبط بها، وقفت وحدها أمام المرآة، حدقت في وجهها، في عينيها، في شعرها، أطرقت، أحست بالاختناق.

ولكنها، وهي تخرج من مدخل البناء، رفعت رأسها بقوة وشموخ، ومضت تجابه الريح الباردة بوجهها، وتشد على جسدها معطفها الضيق القديم.

*

على الدرجات الثماني عشرة المؤدية إلى القبو، كانت تنزل في خطوات عجلى، وهي ماتزال رافعة الرأس في شموخ وقوة، وقد احمر طرف أنفها وتشقق، من شدة البرد، تحمل في يدها أصيصاً صغيراً، فيه شجيرة ورد صغيرة، وقد تجمدت عليه أصابعها الناحلة، وبيدها الأخرى كانت تشد على جسمها الناحل معطفها القديم.

وفي البيت طالعها وجه زوجها، أشرق الدفء، واهتزت القصائد، وانثال العطاء.

ألقت برأسها على كتفه، شدها إليه بقوة، يداه تطوقان خصرها، وكانت ما تزال فيهما بقية من السواد، فقد أمضى الوقت أثناء غيابها في تصليح المدفأة.

- أخشى يا سعاد ألا يتفتح للوردة برعم في هذا القبو الرطب، فلا شمس هنا ولا هواء؟!

- لا يا بسام، اكتب قصيدة، وأنا أضمن لك تفتح ألف برعم.

بعوضة تطن عند أذني، أترك الدفتر الصغير، وبهدوء ألطم براحة يدي على أذني، ثم أنظر في كفي، ولكن لاشيء.

وأرفع صوتي سائلاً زوجتي:

- هل أعددت الهوة؟

ويجيئني صوتها من المطبخ ممزوجاً بصوت غسل الصحون:

- لابد من الانتظار

- لا تنسي، جهزي لنفسك فنجاناً، سنشرب القهوة معاً.

وترد:

- علي غسيل الثياب، بعد غسل الصحون، ومسح أرض المطبخ، ليس عندي وقت لشرب القهوة.

وأصمت، والأولاد في الغرفة الأخرى يضجون ويلعبون.

ثم يجيئني صوتها، وهي تعلق:

- من زمان شرب القهوة معاً انتهى، الأولاد أخذوا منا كل شيء.

أصمت ثانية، أعود إلى النظر في الدفتر الصغير.

ويتصايح الأولاد، وهم يتدافعون داخلين من باب الغرفة:

- بابا، يا بابا تعال انظر الدودة.
- بابا تعال اقتل الصرصور.
- لا، لا ما هو صرصور، هذا ثعبان.
- لا يا بابا، ما هو ثعبان، لا نعرف، هذا بعوض كبير، هو الذي يعضنا في الليل.
- لا، هذا ثعلب، ثعلب يا بابا.

وألقي بالدفتر من يدي، وقد أصبح الأولاد كلهم أمامي، وأتناول الخف من قدمي، وأنهض، ليس ثمة عصا إلى جانبي، وأمضي في اثر الأولاد وهم يتدافعون أمامي.

ثعبان؟ من أين لنا الثعبان؟ بل من أين لنا الثعلب؟ ونحن نسكن الدور الثالث في بناء اسمنتي مغلق، جدرانه صماء، وسقفه أصم، لا خزانة فيه، و لا ثغر، ولا حديقة حوله، ولابستان ب في قربه؟ وليس ثمة غير حاوية القمامة، على الرصيف المقابل للبناء، وهي تنضح بما فيها وتطفح، والروائح تفوح منها وتنتشر.

الصرصور يعرفه الأولاد، ويعرفون البق والبعوض، ومنذ يومين فقط رششت في كل الزوايا المبيدات والسوائل القاتلة، وكل يوم، تمسح زوجتي الأرض بالماء والصابون؟! وكل صباح أمسح أيدي

الأولاد وأذرعهم بالمطهرات وأدهنها بالمساحي المضادة للسع الحشرات، وقبل أن أخرج إلى وظيفتي أوصيهم: -لا تحكوا في مواضع اللسع-، وطوال وجودي في البيت أنبههم: "لا تحك ذراعك، لا تحكي أنفك، اغسل يديك"، وفي الليل أنهض، وأتفقدهم، لأقتل ما على أيديهم أو على الجدران من بعوض.

وتدخل زوجتي قادمة من المطبخ، تحمل المقشة في رأسها عصا طويلة رفيعة، وهي تقول:

- خذ هذه المقشة.

وأنظر إلى حيث أشار الأولاد، من غير أن يتقدموا.

والقي على الأرض بالخف الذي في يدي، ثم أضع فيه قدمي، آخذ المقشة من يد زوجتي، وقد غاصت حماستي، وفتر تأهبي.

**

كنت وحدي في الدار، حين التقيت بأفعى، فقتلتها، وأنا دون الخامسة عشرة.

وأنا مستلق في السرير أقرأ، في دار جدي القديمة، سمعت صوت وقوع شيء ما، حسيس حركة، ونظرت، وإذا أفعى على الأرض.

الغرفة ذات سقف ترابي، تحمله جذوع أشجار نخرة، طالما سمعت فيها خشخشة غريبة، يتبعها تساقط ذرات من تراب، وفي الجدار، وراء سريري،

خزانة عميقة، فيها ثغرات وحفر كثيرة، كلما تناولت منها كتاباً، كنت أمد يدي بحذر متوجساً من عقرب أو أفعى.

كنت دائماً أتوقع لقاء مع أفعى، ولاسيما في داخل الغرفة، أمّا في فناء الدار، حيث البركة المظللة بدالية العنب، وشجيرات الفل والياسمين في أطراف الفناء، فكنت لا أتوقع شيئاً.

حتى في الحوض الترابي الكبير الذي ينهض فيه جذع شجرة التوت الكبيرة، كنت لا أتوقع شيئاً، على الرغم من حفري دائماً عند جذع الشجرة.

وحتى في الأزقة والحارات المعتمة الضيقة الملتفة الملتوية، بل والمغلقة، كنت لا أتوقع شيئاً ما، بل كنت أحس فيها بالألفة والأمان، وأنا أخطو فوق البلاط الأبيض المغسول بالمطر، وأتنسم عبق التراب في الجدران، وحين أمر تحت سقف يغطي الزقاق كنت أحس بالدفء والحنان.

لست أدري لماذا كانت الغرف وحدها هي التي توحي بوجود شيء ما، في السقف أو الخزانة، أو على الرفوف الخشبية المثبتة في الجدران، أو في الكوى التي تعلو النوافذ، وما هو بتوقع الخائف، وإنما هو الإحساس بالمساكنة، والشعور بوجود كائن ما.

ولكن دائماً كنت أتوقع لقاء مع أفعى، ربما لكثرة ما سمعت من قصص عنها، أو لكثرة ما قرأت.

وهاأنذا أمام أفعى، وجهاً لوجه، وأنا في الدار وحدي.

كنت مستغرقاً في قراءة رواية، وأنا أتوقع دخول بنت الجيران، تجئ تستعير شيئاً من أمي، وإذا الزائرة أفعى، تهبط علي من السقف، على غير توقع، وهي تسد علي باب الغرفة.

هل أتركها تمضي، لا أعرف وجهتها! قد تبدل الباب إذا ما تحركت، هل ستمضي نحو الباب، وتخرج في سلام، أم سوف تتسلق الجدار إلى الجدار إلى السقف، لتغيب في شقوقه؟!

هي أمامي، وأنا قبالتها، على السرير، والكتاب في يدي.

أحس أنها أنثى، أفعى، وليست ثعبانا، هكذا أحس، لا أعرف لماذا؟!

يتملكني شعور غريب بأننا وحدنا معا، أحس برغبة جامحة في أن نبقى هكذا معا وقتا طويلا، أتأملها، أحس بوجودها، بحركتها، بتألق جسدها، بلمعان عينيها، بانفتاح ثغرها، شعور مبهم غريب غامض، فيه الإحساس بالدهشة والمفاجأة والحذر والتحدي والخوف والتأهب والمتعة.

هذه هي أول مرة التقي بها بأفعى.

حدثتني جدتي عن رجل ضرب أفعى فأصاب ذيلها، فنفخت عليه سمها، فقتلته، يجب أن تضرب

الأفعى في رأسها ضربة واحدة، فتقتلها، وإلا قتلك سمها.

وحدثتني جدتي أيضا عن جدي رحمه الله، فأكدت لي أنه ما قتل أفعى قط، على الرغم من كثرة ما رأى من الأفاعي، كان إذا رأى أفعى وقف قبالتها ساكنا من غير أن يتحرك، ثم قال لها: اذهبي في شأنك يا مباركة، فتوليه ظهرها، ثم يمضي بسلام.

وحدثتني جدتي أيضا عن أناس يؤاخون الأفاعي، فهي تعيش معهم في دورهم، لا يؤذونها، ولا تؤذيهم، بل لعلها تقدم لهم خدمات لا يقدر على تقديمها الجن أنفسهم .

هل أقول لها كما قال جدي ؟!

جسدها المؤتلق يدعوني إلى قتلها، أحس بها تدعوني إليها، وجودها يغريني بقتلها، أنفاسي تتسارع، لا من خوف، ولكن من شوق إلى ضربها ضربة قاتلة على رأسها.

وجودها يتحداني، يدعوني، يغريني، والعصا تحت السرير.

يدي من غير أن أدري تمتد إلى تحت السرير، ترفع الغطاء، أقبض بأصابعي على العصا أحس بها غليظة، قوية، أسحبها من تحت السرير.

العصا في يدي منتصبة إلى أعلى، نحو الأفعى، هذه عصا، وتلك أفعى، هذه لنلك، وتلك لهذه، هما متكاملتان.

وقديما تحولت العصا في يد موسى إلى أفعى، ولقفت حبال السحرة التي خيل للناس أنها أفعى، ولكنها لم تكن كذلك، الحبال رخوة لينة، لا تستطيع فعل شيء، وهذه العصا قوية غليظة منتصبة، وليست بلينة.

يدي قابضة على العصا بقوة، عروقي نافرة، متشجنة، أحس بالدم فيها يسري، أحس بنبضها وهي قابضة على العصا.

في عيني الأفعى أحس ألق الحياة، وقد التفتت نحوي، وأخذت تنسل قادمة إلي، وقد وضعت قدمي على الأرض، قبالتها، وأنا ممسك بيسراي ذيل ثوبي، أشد عليه بحزم، وكأنني أستمد منه قوة ما، وقد انحسر الثوب عن ساقي العاريتين، حتى ما فوق الركبتين، وفي يميني العصا منتصبة.

الأفعى تدنو، هل تلدغني في قدمي، أم تلتف على ساقي ثم تنسل إلى فوق؟؟

برودة ملساء ناعمة، أعقبتها سخونة لذيذة وثمة شيء ما يسري، أعقبه خدر، وإذا أنا نائم، ذلك ما كان حين غرزت الممرضة إبرتها في ذراعي، وأنا

أنظر إلى عينيها، وصدرها الناهد، ثم رأيت بعد ذلك شيئاً.

هل ستكون لدغتها كذلك؟!

لقد نامت كيلوبترا نوماً هادئاً بعد أن لدغتها في صدرها ثعابين النيل، ولم تحس بشيء من ألم، ولم يظهر على وجهها شيء من شحوب، سوى أن التاج مال عن رأسها قليلاً.

هل أتركها تلدغني أولاً، ثم أقتلها؟ أم هل نتعاهد على السلم والوفاء؟!

ما أزال أذكر قصة الرجل الذي عاهد الأفعى على أن يقدم لها الطعام، فتقدم له كل يوم درهماً، ولما مرض، أوكل أمرها إلى أخيه، ففكر هذا في قتلها، ونيل كل ما في جحرها من دراهم، فضربها بفأسه فأصاب ذيلها فلدغته فمات، ثم شفي الرجل ودعا الأفعى إلى العودة إلى العهد القديم، فقالت: أنا لن أنسى أثر الفأس في ذيلي، وأنت لن تنسى قبر أخيك، فلن يكون بيننا عهد.

يجب أن تقع الفأس في الرأس، سأنالها بعصاي.

*

وأمضى إلى زاوية الغرفة أمسك بطرف العصا، بكلتا يدي، قبضتاي على العصا، وهي رفيعة، فيها قليل من صلابة، وأرفع المقشة إلى فوق، ولكني لا أبلغ بها السقف.

وألتفت إلى زوجتي، وهي يقف في الباب، تنظر، والأولاد أمامها مستغرقون في التأمل، خالد، وهو دون الخامسة، يحك ذراعه، وينظر إلي، فأقول:

- لا تحك ذراعك يا خالد.

ثم أطلب من زوجتي إحضار كرشي.

وأدوس فوق الكرسي، أعلو قليلاً؟ أمد كلتا يدي بالمقشة إلى فوق، وبهدوء أضغط بها على الزاوية، عند السقف، ثم أناولها إلى زوجتي.

بضربة واحدة من العصا كنت قد أصبت الرأس، فانبجس الدم، وتلوى جسم الأفعى قليلاً، ثم همد.

وارتعش جسمي، ثم هدأ، كل قواي كانت قد انصبت على الرأس.

ووقفت طويلاً أتأملها.

جسمها الأملس الناعم مازال يتألق، كأنه قنديل يشع بالضياء، وعيناها تلتمعان، وفمها مفتوح عن أنياب بيضاء، أحسست بأنها لم تعض بها أحداً قط.

أنا لم أقتل أفعى، وإنما التقيت بالأفعى، فعرفتها، هكذا كان شعوري.

دنوت منها، حملتها، حفرت لها حفرة في الحوض الترابي عند جذع شجرة التوت الكبيرة، وأهلت فوقها التراب.

في التراب الذي في سقف الغرفة كانت تعيش، وإلى التراب في ظل شجرة التوت عادت، لتنام في هدوء.

*

زوجتي تتناول مني المقشة.

الأولاد يفترسون في الأرجل المحطمة، والمادة النتنة النابقة من الجسم الأسود، والدهشة تغشاهم.

- بابا، ما هذا؟؟
- هل هو ثعبان؟
- هل يعض؟
- من أين جاء؟
- هل خفت منه؟

وأجيبهم:

- هذا عنكب، عنكب يا أولاد، ما هو تعلب ولا ثعبان، وهو لا يعض ولا يخيف.

وأعود إلى غرفتي، ألتقط الدفتر الصغير.

الأولاد في الغرفة المجاورة تصلني تعليقاتهم:

- بابا بطل.
- بابا لا يخاف.
- ولكن العنكب لا يعض، هكذا قال بابا.
- العنكب لا يخيف، قتله سهل.
- هذا صحيح، العنكب ما هو مثل الثعبان ولا الثعلب.

وأسمع صوت خالد يرد عليهم:

- ولكن حتى الثعلب بابا لا يخاف منه، ويستطيع قتله.

ويصمت قليلاً، ثم يضيف:

- وأنا إذا كبرت فسأقتل الثعلب، سأقتل أكبر حيوان.

ويأتي صوت زوجتي من الحمام، وهي تغسل المقشة، صائحة بالأولاد:

- اسكتوا يا أولاد، أوجعتم رأسي بحكاية العنكب والثعلب...، أنتم اقتلوا البعوض إذا استطعتم.

وتدخل عليّ زوجتي وهي في ضيق شديد، لتقول:

- أرجوك، اطلب من الأولاد السكوت.

وتطن إلى جانب أذني بعوضة.

أتغاضى عن السؤال وعن الطنين، أغوص في المقعد، أتظاهر بالنظر في الدفتر الصغير، أتذكر القهوة، أهم بسؤالها عنها، أتردد، أقرر تناسيها.

وتمضي إلى المطبخ صامتة.

أعود إلى النظر في الدفتر الصغير، أراجع فيه ما تراكم عليّ من ديون، لا أعرف سبل سدادها.

*

وأسمع حسيس حركة، أنظر إلى الأرض، أرفع رأسي إلى السقف، ولكن ليس ثمة شيء.
ويطن إلى جانب أذني البعوض.
وفي الغرفة المجاورة يعلو ضجيج الأولاد

فنجان قهـــــوة

في الطريق من المستشفى على البيت، سألها ابنها الأكبر بشير عما تتمناه، فأجابت:

- الموت بينكم يا أولادي، وأنا في كامل قوتي، لا على سرير المستشفى، وأنابيب التغذية والدواء مغروزة في يدي.

ورد عليها:

- أدامك الله لنا يا أمي، كنت أسألك عما تتمناه نفسك من طعام أو نزهة.

ثم دار بها في السيارة في بعض شوارع المدينة لترفه عن نفسها، وأمام بائع الحلوى أوقف السيارة، واشترى عدة أنواع.

*

وفي البيت كان في استقبالها أولادها وبناتها كلهم، أمجد ابنها الأوسط، وسميح ابنها الأصغر، ومنى ابنتها الكبرى، ورجاء ابنتها الصغرى.

وشاركتهم جميعاً في تناول الحلوى.

ثم أبت إلا أن تعد لهم القهوة بنفسها، وحاولت رجاء أن تأخذ منها الفناجين فما أفلحت، ونهض سميح، يحاول ذلك أيضاً، ولكنها رفضت إلا أن تطوف عليهم جميعاً، لتقدم لهم الفناجين بنفسها.

وهي ترشف قهوتها، سألتهم:

- أرجو أن تكون قهوتي قد أعجبتكم؟!

وأكد الجميع تفوقها في إعدادها.

ثم نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار، وقالت:

- هيا يا أولادي، إلى بيوتكم.

وقالت رجاء:

- لا يا أمي، سأبقى عندك.

فردت عليها:

- لا يا بنتي، اذهبي إلى بيتك، زوجك وأولادك في انتظارك.

وتدخل بشير فقال:

- لا يا أمي، لن تبقي في البيت وحدك، يجب أن تذهبي معي إلى البيت، غرفتك عندي جاهزة.

وردت بحزم:

- لا، لن أذهب إلى بيت أحد، ولا أحد سيبقى عندي، سأبقى في البيت وحدي، يكفي إزعاجي لكم في الأيام الماضية.

وسألها أمجد:

- والدواء؟!

وردت عليه:

- سآخذه بنفسي.

ثم ودعتهم، وهي ترجوهم ألا يزورها أحد منهم في صباح اليوم التالي، مؤكدة لهم أنها لن تقعد في البيت، وأنها سوف تزور كل قريباتها وصديقاتها.

*

قبل أسبوعين كانت ترقد على سريرها في المستشفى، غير واعية بمن حولها، وغير عارفة بمن حولها، وغير عارفة بمن يزورها ولا يزورها، وقد تجمع من حولها أولادها وزارها كل الأقارب، وكل صديقاتها وجاراتها، وامتلأت غرفتها بالزهور، وكان الجميع يرجعون إلى البيت، والدموع تملأ منهم العيون.

أزمة قلبية حادة، هي الثانية، تنتابها في عام واحد، وتنقل إلى المستشفى، في شبه غيبوبة.

ولكنها سرعان ما تجاوزت الخطر، واستعادت وعيها، وقبل نهاية الأسبوع كانت حالتها قد بدأت تتحسن، وقبل ثلاثة أيام دهش الأطباء للانتعاش القوي الذي طرأ على قلبها، وأكدوا جميعاً أنها لم تعد بحاجة إلى البقاء في المستشفى، ولكن أولادها أصروا على بقائها يومين آخرين، من أجل مزيد من العناية.

وفي نهاية الأسبوع الثاني خرجت من المستشفى أقوى ما تكون.

*

في صباح اليوم التالي زارت جارتها أم وفاء، وشربت عندها القهوة، ثم ذهبتا معاً لزيارة أم جميل وعندها التقت الجارات، وتناولن جميعاً طعام الفطور، فرحاً بشفائها.

وعند الظهيرة زارت أختها، وفي المساء رجعت إلى البيت.

وزارها ابنها الأكبر، وعاتبها بلطف لإتعابها نفسها في الزيارات، ولكنها ردت بحدة:

- ماذا تقول يا بشير؟! انظر إلى وجهك في المرآة، ثم انظر إلى وجهي، أنا في الستين، وأنت في الأربعين، ولكن بالله عليك قل لي: من هو الأقوى؟!

وأجابها بلطف:

- أنت الأقوى، لأنك أمي.

فأضافت:

- هيا، عد إلى بيتك، زوجتك وأولادك بحاجة إليك، ابق معهم يا بشير، أنا بألف خير.

*

وأخذت تزور قريباتها، حتى اللواتي لم تزرهن منذ سنوات، وحتى اللواتي لم يزرنها في المستشفى، وقد فوجئ الجميع بشفائها، وهنأنها، وفرحن بها.

وأقيمت لها الولائم هنا وهناك، عند أولادها وبناتها، وعند جاراتها وصديقاتها، ولائم للغداء وولائم للعشاء، وسهرات.

وفي كل مكان كانت ترفض أن يعاد على سمعها شيء من الكلام عن مرضها، وترفض أن يعاد ذكر المستشفى، والعلاج والدواء، وتنكر أن تسال عن صحتها.

*

بعد انقضاء أسبوع على خروجها من المستشفى، راجعت الطبيب، وبصحبتها ابنها بشير، فأكد لها الطبيب أنها لم تعد بحاجة إلى دواء، ودهش لقوة قلبها، ولكنه لاحظ زيادة وزنها، وأكد لها ضرورة الاستمرار في الامتناع عن الملح والدهن.

وفي طريق العودة إلى البيت قال لها ابنها بشير:

- غداً سيكون غداؤنا شواء في بستان

فقالت له:

- ولكن على شرط أن يكون معنا الجميع، كل الأولاد، الكبار والصغار.

*

وفي عصر اليوم التالي وقفت ثلاث سيارات صغيرة في طرف البستان، ونزل منها الجميع، وهي تستند إلى ذراع ابنها بشير.

وبعد ساعة التف الأولاد والأزواج والزوجات والأحفاد حول الخروف تئز النار تحته فيعبق منه الجو بريح تتشهاه النفوس، وأم بشير تقطع اللحم من الخروف وتناول الكبار والصغار.

وبعد الغداء قعدت على الأرض، وحدها، في ظل شجرة كبيرة، وأخذت تنكت التراب بيدها، تخط فيه بأصابعها، تحمله في قبضة يدها المعروقة، ثم تتركه ينثال من فروج أصابعها إلى الأرض ذرات ذرات.

وتنبه إليها ابنها الأوسط أمجد، فأسرع إليها يسألها:

- لماذا أنت هنا، وحدك، يا أمي؟!

فأجابته من غير أن ترفع إليه وجهها:

- لاشيء يا بني، ولكني ذكرت أباك، وأنا أقلب التراب بيدي.

ثم نادت إليها الجميع، وطلبت منهم أن يبقوا حولها، وألا يتركوها وحدها.

*

في صباح اليوم التالي سافرت في القطار إلى البحر، لتنزل عند إحدى صديقاتها، وهي تحمل إليها حقيبة مملوءة بالهدايا.

ولم تخبر صديقتها بمرضها، ولم تحدثها عنه بشيء.

ونزلت معها في زورق، لتقوما بجولة بحرية، وألحت على الربان راجية منه أن يبتعد عن الشاطئ أكثر فأكثر، حتى تحس بالاضطراب الحقيقي للموج في عرض البحر، ثم رجته زيارة المنارة القديمة.

وعلى أدراج المنارة القديمة كانت تصعد ببطء، وراء الحارس العجوز، وهو يحذرها من الدرجات المكسورة، وصديقتها في إثرها، تعبر عن ضيقها بالعناكب، وفزعها من الخفافيش، وهي تمضي موغلة في عتمة الدرج، غير مبالية، حتى أطلت على البحر، ورأت امتداده اللازوردي.

بعد يومين رجعت بالطائرة، وقد تمنت على مكتب الشركة أن يكون مقعدها بجوار النافذة، تريد أن تملأ عينيها من كل شيء.

رأت السماء والغيوم والسحاب، ورأت من بعيد طائرة تمضي مسرعة، وتمنت لو حلقت الطائرة أعلى فأعلى، وأحست بمتعة ذلك الانسياب الناعم للطائرة في الفضاء، وهنئت بما قدم لها من طعام، وتمنت لرحلتها لو تطول وتطول.

ولكن كان لابد في النهاية من أن تدنو من الأرض.

وأطلت على مدينتها، فرأتها كلها.

*

وفي المساء التقى عندها أولادها كلهم، ليرحبوا بها، وأبت كعادتها إلا أن تصنع لهم القهوة بنفسها.

وبعد أن وزعت عليهم الفناجين، قعدت بينهم، لتشرب قهوتها، ورفعت الفنجان، ولكن قبل أن يبلغ فمها، كانت يدها قد ارتخت عنه، ووقع الفنجان على الأرض.

وعلى فمها الفاغر ارتسم طيف ابتسامة، وأنظارها شاخصة إلى أولادها.

سيارة دفن الموتى على طرف الرصيف، أراها من بعيد، واقفة أمام دار عباس، هل توفى عباس؟ أو توفيت أمه؟!

وأنا ذاهب إلى السوق، أحمل حقيبة جلدية، لشراء الخبز، في ضحى يوم العطلة، أرى سيارة دفن الموتى، على صوت الأولاد أستيقظ، كنت أتوقع أن خبر الأمس سيكفينا إلى اليوم، كنت أؤمل أن أوفر على نفسي شراء الخبز على الأقل، لأبقى قابعاً في ركن بيتي، في يوم العطلة، ولكن كان لابد من الخروج، لا للنزهة أو التسلية، وإنما لشراء الخبز، وهذه سيارة دفن الموتى تواجهني أمام دار عباس.

في الشارع الفرعي الذي أسكن فيه، تقع دار عباس، دار قديمة، تحيط بها من كل جهة أبنية حديثة شامخة، ترمي عليها منافذ النور والهواء، وهي وحدها ترقد في هدوء وصمت، أمر بها كل يوم مرة أو مرتين، في الصباح والمساء، سورها قصير، تتسلقه نباتات من أنواع شتى، بعضها يصفر، ويخضر بعضها الآخر، ولا تنالها يد بتشذيب، وترتفع فيها أشجار السور عالية، وقد احترقت معظم أغصانها واسودت، لحرمانها من النور والهواء، فهي عتيقة بالية، وثمة شجرة جوز كبيرة، اتكأ جذعها

على طرف السور، ومال، فمال معه السور، وتزعزعت بعض أحجاره، فهي آيلة إلى السقوط.

من وراء السور لا تظهر سوى نوافذ ذات قضبان حديدية قديمة صدئة، وراءها ألواح زجاجية مغبرة أكثرها مكسور، وقد استبدل ببعضها ألواح خشبية، ووراءها ما تبقى من زجاج يمكن أن تتبن بصعوبة بقايا ستائر مسدلة دائماً.

*

كلما مررت بالدار، تشوقت لرؤية ما بداخلها، يجذبني إليها صمتها الغامض، ولونها الكئيب، تذكرني بدار جدي القديمة، ذات الفناء الواسع، والبركة الكبيرة، تظللها شجرة التوت العتيدة، أتسلقها لألتقط حبات التوت الناضجة، أو أمسك بالعصافير الصغيرة، أستيقظ على أصوات نسوة يمرحن في فناء الدار، هن بعض شقيقات أمي وبنات شقيقاتها، جئن إليها في الصباح الباكر لالتهام التوت الأبيض، وكانت أمي من قبل قد غسلت بلاط الفناء، وصفت أصص القرنفل والفل، وملأت البركة بالماء، وأعدت المامونية والجبن، ثم تدور فناجين القهوة، وتبدأ النسوة بقراءة الحظ في الفناجين المقلوبة، وأنا ألهو مع الصبية والبنات، وأحاول الانفراد بابنة خالتي سمر، أدعوها إلى غرفتي لترى دفاتري وكتبي، ويخرج جدي، ليمازح الصبايا، يسألنه أن يحكي لهن

عن ليلة زفافه، فيرسل الرحمات إلى روح جدتي، ثم يرد عليهن ضاحكاً: "عن أي ليلة أتحدث، عن ليلة زفافي التي كانت، أو التي ستكون؟!"، ثم يؤكد لهن عزمه على الزواج مرة ثانية، وهن يعرضن عليه مازحات أن يختار منهن من يشاء.

أمر أحياناً بدار عباس عند الغروب، فأتوقع سماع نشيد أجواق من العصافير، من مثل ما ألفته سماعه عند الغروب كل يوم في دار جدي، ولكني لا أسمع شيئاً، أنظر إلى الأشجار، فلا أكاد أرى سوى عصفور أو عصفورين.

*

أحياناً أحاول اختلاس النظر من شق الباب، حين أصادف عباس وهو خارج من الدار، ولكنه سرعان ما يغلق الباب، ويوليني ظهره، ويمضي في تعليق قفل عتيق على الباب.

وأحياناً أراه وهو يفتح القفل، فأتمهل في سيري، لعلي أرى شيئاً مما في الداخل، ولكنه يتمهل أكثر في معالجة القفل، وهو يوليني ظهره، وكأنه أدرك ما بنفسي، فأمضي خائباً.

دائماً تثير دار عباس فضولي، ودائماً تذكرني بدار جدي، وأتمنى لو دخلتها، ولكن من غير جدوى.

أحياناً ألقي عليه السلام، فيرد مغمغماً، ولا يشجعني على شيء من الكلام.

- اسمه عباس، يعيش مع أمه، وهو وحيدها، وهي على ما يبدو قعيدة.

هكذا أجابني حلاق الحي، عندما سألته عنه، ولما سألته عن عمله، أكد لي أنه لا يعرف، ثم خمّن أن يكون موظفاً، كما أكد لي أنه لا يدخل دكانه على الإطلاق.

ويبدو أن أحداً في الحي كله لا يعرف عباس أكثر مما يعرف الحلاق، فقد سألت عنه مرة (أبو عمر) بائع الحليب، ودكانه غير بعيدة عن دار عباس، فأجابني:

- لا أعرف، هو زبون قديم، كل يوم يشتري نصف كيلو حليب.

قلت له:

- ولكنه يسكن هنا في الجوار، وهو صاحب تلك الدار القديمة.

ورد علي أبو عمر قائلاً:

- الحقيقة أرى الدار، ولكن لا أعرف أنه هو ساكنها.

تركته ومشيت وأنا لا أصدق أنه لا يعرفه، وقلت لاشك أن في حياة الرجل أمراً ما.

واليوم أرى سيارة دفن الموتى أمام داره، هل توفى هو؟! أم هل توفيت أمه؟!

مرة رأيته عند (أبو عدنان) بائع الخضر، كان ذلك قبل سنتين، أو ثلاث، دخلت دكان (أبو عدنان) كان عنده، ينتقي بعض أعواد السبانخ، ودخل الدكان أيضاً رجل في الخمسين، مستدير الوجه، موفور الصحة، يحمل كيساً صغيراً، يشف عن قطع لحم، رحب به أبو عدنان، وقال له:

- مازلت على عاداتك يا شريف، كل يوم لا غنى لك عن شراء اللحم للقطط.

ورد عليه شريف:

- هي أغلى من أولادي.

رفع عباس رأسه عن كومة السبانخ التي كان مكباً عليها، حملق في الرجل، اتسعت حدقتاه، جمدت ملامح وجهه، تقلصت شفتاه، رمى أعواد السبانخ من يده وخرج.

وهو يمر بي، قلت له:

- الحق معك، نحن لا نكاد نشتري اللحم للأولاد.

سمعته يغمغم بكلام ولكني لم أتبين منه شيئاً.

ولكني بعد ذلك قلت لنفسي: مهما يكن من أمر، فأن ثمن اللحم للقطط لا يكلف شيئاً، حتى لو كان لا يشتري اللحم لأولاده.

*

في دار جدي القديمة كان عندنا قط أبيض كالفل، ناعم الشعر، اسمه مشمش، كان جدي يطعمه بيده، ويسقيه الحليب الدافئ كل صباح، وفي المساء كان يقعده أمامه، تحت عريشة الياسمين، إلى جانب النارجيلة، وهي تقرقر، وتنشر في الأجواء عبق التنباك، كنت أخاف من مشمش، وكان جدي يغريني بمداعبته، ويحثني على مسح شعره بيدي، ويقسم لي أنه لا يؤذي ولا يخيف، وقد سمعته مرة يؤكد لأمي أنه ربى القط في الدار خاصة لأجلي، حتى أعتاد القطط ولا أخاف منها، كنت في الحقيقة أخاف القطط لا أعرف لماذا، كانت بعض القطط تمر بسطح الدار، تسير فوق الجدران العالية، تعبر من دار على دار، تقفز إلى الجدران، وفي ليالي شباط الباردة، كنت أستيقظ على موائها الذي كان يتخذ أشكالاً مختلفة، بعضها مخيف، إذ كانت كثيراً ما تشاجر وتتخاصم وتتراكض، فأستيقظ مذعوراً على قعقعة أقدامها فوق السطح، أو موائها فوق الجدران، وهي تتخاصم، ثم فقدنا مشمش فجأة، لا أعرف كيف كان مصيره، وقد عبرت أمي في غياب جدي عن سرورها، فقد كان عليها أن تزيل كل يوم ما ما تتركه من قذر في حوض شجرة التوت، أمّا أنا فقد بدأت أحن إليه، وأخذت آنئذ أتمنى عودته لأمسح على شعره، وغلى اليوم ما أزال أذكره، وإن كنت لا أفكر في تربية قط

في داري، وكيف لي أن أربي قطاً في دار مغلقة، ليس فيها سوى ثلاث غرف، وليس للقط فيها موضع، بحسبي أن أربي أولادي، وأجد لهم فيها موضعاً للنوم أو اللعب.

*

رأيته مرة بعد ذلك اللقاء العابر، وهو متجه إلى داره، كان يسير على الرصيف، مقبلاً نحوي، فحثثت الخطا كي أصل إليه قبل بلوغه الدار، وحييته ببشاشة، وأنا أتوقع أن يقابلني بالمثل، ولكنه قابلني بفتور، ولم يرد على سلامي سوى غمغمة باهتة، وكأننا لم نلتق بالأمس في دكان أبو عدنان.

عند السيارة، أرى السائق يقعد وراء المقود، وعند النافذة إلى جانبه، يقف خارج السيارة رجل، ملامحه غريبة، كأنه أحد سكان الحي، وهما يتحدثان معاً، من خلال نافذة مفتوحة.

أحييهما، ثم أسأل:

- من المتوفى؟!

ويرد الرجل:

- أم عباس، تفضل شاركنا في تشييعها، لتنال الثواب.

أجد في الدعوة فرصة لتحقيق ما أتمنى من التعرف إلى عباس، وداره.

أقف إلى جانب الرجل، واضعاً الحقيبة الجلدية وهي مطوية تحت أبطي، أنظر في الساعة، ثم أسأل:

- وهل يتأخر تجهيز الميتة؟!

ويرد السائق:

- لا، لن يتأخر.

- وأين سيكون الدفن، في المقابر الشرقية، أم الجنوبية؟!

- لا في هذه، ولا تلك، في مقابر البلدية الخاصة بالفقراء والغرباء.

ويصمت، ثم يتكلم:

- هذه أول مرة أحمل ميتاً إلى مقابر البلدية من حي راق مثل هذا الحي، العادة أن أحملهم من المستشفيات، ومن دور العجزة، ماذا يعمل ابنها؟!

وأجيبه:

- لا اعرف، ولكن أظن أنه موظف.

ويتكلم:

- ما رأيت في حياتي مثله، تصور ولداً يبخل على أمه بثمن قبر، ويطلب دفنها في مقابر البلدية، شيء لا يصدق، أنا متأكد أنه لن يعطيني أي شيء، لا أنا ولا اللحاد، ولن يوزع شيئاً على الفقراء، مقابر البلدية لا يقصدها الفقراء، حتى الكلاب الضالة لا تأوي إليها.

يصمت، يخرج من جيبه علبة تبغ، يستل منها سيكارة، يرشفها بين شفتيه، ويتكلم:

- أنا كنت إلى جانب موظف البلدية، سأله الموظف: هل تريد وضع حجر على قبرها يحمل اسمها، فرد على الفر لا، لا، لا أريد شيء. هو لا يريد أي شيء يكلفه قرشاً واحداً.

لم أشعر بغرابة ما قاله السائق، لم أجد فيه جديداً، وإن كنت قد شعرت بالتذمر منه، والضيق من سيل المعلومات التي يقدمها من غير سؤال، لذلك ضقت به ذرعاً، توجهت إلى الرجل الواقف إلى جانبه سائلاً:

- هل أنت قريب لعباس، أو أمه؟!

ورد على الفور:

- لا، أنا جار مثلك، لا أعرفه ولا هو قريب لي، ولا أمه، يبدو أنك لا تعرفني أنا أسكن في البناء المجاور لك، ولكن (أبو محمد) السائق، ابن خالتي.

أبو محمد السائق ينفث دخان سيكارته.

سألت:

- وأين عباس؟!

ردّ الجار:

- هو في الداخل.

أستأذنهما، وألتفت ماضياً إلى الدار.

أجتاز الباب الذي أعرفه دائماً مغلقاً، أجتازه أول مرة، أدخل، وإذا عباس قاعد إلى درجات، بين يديه كسرة خبز يابسة، يهمشها، يفتتها، وأمامه صحن صغير.

يحس بدخولي، فيذعر، كان مستغرقاً في عمله، كأني أراه مبتسماً بتهمة، بفعل شنيع، يكف عن تهشيم الخبز، كأنه يحاول إخفاءه، يحملق بي من وراء نظارته الطبية، تجمد ملامح وجهه، بل هي في الأصل جامدة، أول مرة أراه من قرب.

أقول له:

- البقية في حياتك.

تطرف عيناه، كأنه يبحث عن جواب، يسألني فجأة:

- هل تربي القطط في بيتك؟!

أجيبه:

- لا.

يقول لي:

- الآن عرفتك، رأيتك عند أبو عدنان، أنت لا تحب القطط.

ينهض، يهبط الدرج، وهو يحمل الصحن المملوء بفتات الخبز اليابس، يتقدم نحوي، يقول لي:

- امش معي.

ويمضي، وأمضي في إثره.

أول مرة أتبين الدار، هي ليست كدار جدي، أين بركة الماء والعصافير وأصص الزهر؟!

دار مغلقة، مثل الدور الطابقية، ولكنها من طابق واحد فقط، ليس فيها فسحة ولا فناء، يحيط بها حيز ضيق من الفراغ، أعد ليكون كما يبدو حديقة، ولكنه أهمل، فليس فيها سوى حجارة وحصى، وجذوع أشجار السرو المحروقة.

التفت إلى حيث كان عباس يقعد، أربع درجات ترتفع إلى شرفة مفتوحة، فيها ثلاث أكياس كبيرة مملوءة، لعلها مملوءة بخبز يابس.

في الركن الأيمن برميلان صدئان، وصفائح معدنية من حجوم وأنواع مختلفة، وإلى جانبها خزانة خشبية عتيقة مما كانت تحفظ فيه الأطعمة.

عباس يتقدم، وأنا في إثره.

هو يحمل بين يديه صحن فتات الخبز اليابس، وأنا أحمل تحت أبطي حقيبتي الجلدية.

ثمة درج آخر، أربع درجات، أرقاها في اثر عباس، ندخل ردهة معتمة، غرفة على الطرف الأيسر مغلقة، نسير معاً في ممر ضيق، بابان متقابلان، مغلقان، في نهاية الممر باب موصد، عليه قفل، يقف أمامه عباس، وهو ما يزال يوليني ظهره، يضع الصحن على الأرض، يعالج القفل، ينحني، يحمل الصحن، يلتفت إلي، ويهمس:

- ادخل بهدوء حتى لا يذعر الأولاد.

وندخل معاً.

وتندفع نحونا من كل الزوايا والأركان أسراب من الفئران، تزقزق وتتسابق.

عباس يجثو أمامها على ركبتيه، يرمي إليها بفتات الخبز اليابس، وأنا أقف وراءه، أنظر، وتحت أبطي الحقيبة الجلدية المطوية.

الغرفة كبيرة، هي غرفة ضيوف، فيها مقاعد وأرائك مغطاة بستائر مصفرة، منذ دهر لم تستقبل أحداً، والنوافذ كلها مغلقة، وقد أسدلت فوقها ستائر، فلا بصيص نور يتسرب إليها، ولا يمكن معرفة الجهات فيها.

ويلتفت إلي عباس، ليقول، وهو ما يزال يرمي إلى أسراب الفئران فتات الخبز:

- هل رأيت؟ هؤلاء أولادي، لا يشفق عليهم أحد، ولا يربيهم أحد، ولا يعطف عليهم أحد، في كل مكان يضعون لهم المصائد، والسموم، في كل مكان يربون القطط لتبطش بهم وتفترسهم.

ويصمت، وهو يرمي إليهم بآخر ما تبقى في الصحن من فتات الخبز، ثم ينهض، ويسألني:

- هل تسرك رؤيتهم؟

وأجيبه:

- نعم.

ويزيح ملاءة عن أحد المقاعد، ويقول لي:

- اقعد إذن، اقعد لترتاح مع الأولاد، اقعد لتشعر بجنة الصغار البائسين، طوال ثماني سنوات أغيب عنهم، أحرم منهم، هناك في القبو، أسفل المديرية، لا يسمحون لي بتربيتهم، كل يوم أو يومين، يأتي الخادم، يحمل أكياس السموم، ينثرها في الزوايا، أسفل الجدران، هنا وهناك، في كل ركن، حتى أصبحت أعتقد أن المقصود بالسموم هو أنا، أنت لا تعرف المدير، رفيع، حين يتكلم تظنه يموء، انظر إلى أولادي، انظر إلى الآذان الناعمة، والعيون اللطيفة، والأنوف الدقيقة، والحركات الرشيقة، لا أعرف لماذا يخافون منهم هناك في المديرية، لو ترى الجدران السميكة، والأبواب الحديدة، لا أعرف على أي شيء يخافون؟! آه لو نظرت، رفوف معدنية، طويلة طويلة، تمتد وتمتد وتمتد، على طول القبو، وقد رصت عليها المصنفات، لي ولك ولكل موظف مصنف، وأنا وحدي هناك في القبو، أحرس تلك المصنفات، هل أنت موظف؟!

وأجيبه:

- نعم.

- إذن لك مصنف هناك، في القبو، وجودك الحقيقي هناك، ورقة الميلاد، وصورتك وشهادتك و و و وكل كل الأوراق التي قدمتها منذ زمان،

حتى خطك قبل عشرين عاماً، كل ذلك هناك، محفوظ عندي في القبو، حتى أوراق أبيك وجدك وجد جدك، هل كان جدي موظفاً؟!

*

جدي لم يكن موظفاً، جدي كان خبازاً يعمل في الفرن، كل يوم صباحاً أذهب إليه، أحياناً أراه أمام المعجن، مشمراً عن زنديه، يعجن الدقيق الأبيض، بيديه المعروقتين، وحبات العرق تندي جبينه، وأحياناً أراه أمام التنور، يدفع رقائق العجين على لوح خشبي إلى داخل التنور، يرميها هناك بمهارة، على الحجر الملتهب، فتنتفخ، تتورد، وتصبح قباباً ذهبية، وبرشاقة يسحبها بلوح خشبي، وأرجع إلى البيت وأنا محمل بأرغفة الخبز الشهية، واليوم أخرج كل صباح، أحمل تحت أبطي حقيبتي الجلدية، وأمضي إلى السوق، لأشتري للأولاد خبزاً ليس كالخبز الذي كنت أحمله من فرن جدي، أو من الفرن حيث كان يعمل جدي، فقد عرفت فيما بعد أن جدي كان أجيراً، كنت أحسبه هو صاحب الفرن، ولكني علمت فيما بعد أنه مجرد أجير، وأن أرغفة الخبز التي كان يحملني إياها هي جزء من أجرته، وأنا الذي كنت أظنها زهيدة، وليست ذات قيمة، هل يعرف أولادي قيمة الخبز الذي أحمله لهم كل صباح؟! مهما يكن، فقد قال لي جدي مرة، وهو ساهر تحت عريشة الياسمين، في فناء الدار ماذا ستعمل في المستقبل؟! فأجبته: سأنال الشهادة

وأتوظف، كنت آنئذ في آخر المرحلة الثانوية، أطرق برهة، نفث دخان نارجيلته ثم سأل مرة أخرى: ستصبح مثل الموظفين وراء المكاتب؟! أجبته: نعم، ورد على الفور: لا، لا يا بني، لو قلت معلماً لكنت وافقتك، ولكن لا أوافقك على وظيفة وراء مكتب.

*

وأرد على عباس:

- لا، جدي ما كان موظفاً.

- وأبوك؟!

- لا أعرف، توفي أبي وأنا في الرابعة من عمري، ولكن لا أظن أنه موظف، توفى وهو شاب، أظن أنه كان يعمل مع جدي في الفرن.

- إذن، حظ جدك وحظ والدك أفضل من حظك، أنا وأبي هناك، تحت، في القبو، أبي موظف، أبي كان من الموظفين الأوائل في الدولة وحين توفى، رفضت أمي الزواج من بعده، توفى باكراً، وأنا طفل، في الخامسة، وهكذا بقيت أنا وحدي، عشت وحيداً، أنت لا تعرف كم هو صعب أن يعيش الولد أو الشاب أو الرجل وحيداً، ومع ذلك فقد عشت وحدي، ومن راتب والدي التقاعدي، عاشت أمي، وعشت أنا، ولذلك لم تتزوج، ولو تزوجت لحرمت من ذلك الراتب، ولذلك أيضاً حين أصبحت شاباً أردت العمل في

النجارة، أنا أحب النجارة، ولكن أمي منعتني، وقالت: لا، يجب أن تتوظف، يجب أن تكون موظفاً مثل أبيك، الوظيفة عندها قدس الأقداس، ومع ذلك حين توظفت، لم ترض عني، ولم يعجبها راتبي، حتى راتبي نفسه تسخر منه، كانت تقول: أنت موظف وأبوك موظف؟ الفرق كبير، راتبه كان أقل من راتبك الآن، أنا أعرف، ولكنه كان يستطيع به شراء مالا تستطيع أنت شراءه، هل تعرف؟ هذه الدار اشتراها أبوك بعد سنة من دخوله سلك الوظيفة، أمّا أنت، فانا أعرف، أنت لا تستطيع طوال العمر شراء غرفة واحدة من غرف هذه الدار، ولو ادخرت راتبك كله ولم تنفق منه أي قرش، هذا الكلام كانت تعيد علي الكثير منه، كل يوم، ماذا أقول لك؟!

ويصمت، ثم يرسل زفرة طويلة، وأنا في المقعد العتيق أرقب أسراب الفئران، وهي تقزقز فتات الخبز اليابس، وتحت أبطي ما تزال الحقيبة الجلدية المطوية.

ويلتفت إلي، يتابع كلامه، كأنه لم يصمت:

أنا لم أكلم أحداً بمثل هذا من قبل، أنت أول واحد يرى أولادي، وأول واحد يسمع قصتي، كنت لا أستطيع الكلام إلى أحد عن هذا، كنت أحس أن لساني تيبس، اليوم اليوم فقط، أحس أني قادر على الكلام، قد لا تصدق، لأجل أمي، لأجلها فقط، كنت لا أتكلم، هل تصدق؟ حتى

لا تعرف شيئاً عنهم، أنا لم أرب أولادي إلا منذ أن أصبحت أمي قعيدة الفراش، في غرفتها هناك، تقريباً منذ خمس سنوات، قبل ذلك فكرت في أن يكون لي أولاد، ولكن كنت أعرف أنها لا تريد، ولكن حين مرضت، بدأت في تربيتهم، ما كانت لتوافق، من قبل فكرت في الزواج، سكنت في البناء المطل علينا هناك أسرة، كان لديها فتاة شقراء، كنت أراها كل يوم في الشرفة، حدثت أمي بأمر الزواج منها، فرفضت، أكدت لي أنها لن تسمح لها بدخول البيت، ووعدتني بالبحث عن فتاة تليق بي، أمضت سنوات وسنوات تبحث، كلما استقر بها الرأي على فتاة، عادة فنكست عنها، وهكذا مرت الأعوام، حتى امتد بي العمر، فإذا أنا في الخمسين، لا أستطيع الآن قول أي شيء، سوى: الله يرحمها، كانت ترفض أي تغيير، هل تصدق؟ حتى الدار، رفضت أكثر من مرة...

ويعلو في الخارج نداء:

- يا عباس.

وأخرج من الغرفة، يخرج عباس في اثري، يقف أمام الباب، يحكم عليه القفل بهدوئه المعهود، ثم نمضي معاً في الممر المعتم.

نمر بباب مغلق، فيقول لي:

- هنا غرفة أبي، لو دخلت لرأيت كل شيئ في موضعه منذ أربعين عاماً، معطف أبي، طربوشه، عصاه، نظارته، جريدته، كل شيء في

موضعه، لا يجوز مسه، أو تحريكه، هكذا فرضت علي أمي، وأنا صغير كنت أتخيل أبي في الداخل، كنت أخاف دخول الغرفة، كنت أظن أنها تأتي بالنقود من هنا من الداخل.

أنعطف في الممر، إلى الباب فإذا سيدة عجوز في ملاءة سوداء تقف عند الدرجات الأربع، أذهل لمرآها، أحسبها أمه.

ولكني أرى على الأرض تابوتاً خشبياً مغطى، فأذكر أن هذه هي المرأة التي جهزت الميتة.

أنا وعباس والرجل والسائق نحمل التابوت، نسير به في فناء الدار، عابرين الأرض الترابية نكاد نتعثر ببعض الحجارة، نقذ بالتابوت في السيارة، العجوز التي جهزت الميتة تقعد مع عباس في السيارة من وراء إلى جانب التابوت أقعد أنا والرجل على جانب السائق.

وتنطلق بنا السيارة، والحقيبة الجلدية مازالت تحت ابطي مطوية.

تأخرت عن الأولاد كثيراً، لا باس، حين أرجع أشتري لهم الخبز.

*

حين شيعنا جدي، قبل بضع سنوات، شارك كل أهل الحي في تشييعه، لم تتح لي أنا ولا لأعمامي الفرصة لحمله، حمله الناس على أكتافهم، وساروا به من داره، عبروا كل الأزقة والحارات ومروا بكل الجيران الذين

كانوا له كالأهل والأقارب حتى وصلوا به على الشارع الرئيسي، هناك أودعوه بسيارة خاصة، ثم انطلقوا باثره في موكب من السيارات، لا اعرف عددها، ليرحمنا الله جميعاً، أنا أعرف أن هذا كله لا ينفع في شيء، ولكن لا بد من تكريم الموتى.

*

وألتفت على السائق اسأله:

- أليس في السيارة مكبر للصوت؟!

ويرد علي سائلاً:

- ولماذا؟!

أجيبه:

- كالعادة، حتى تنادي: الفاتحة.

يضحك السائق، ويرد:

- هذه السيارة مخصصة لنقل الموتى الذي لا أحد لهم، الذين يدفنون في مقابر الغرباء، قلت لك هذا، من قبل.

تجتاز بنا السيارة الحي، ونمضي في شارع رئيسي، ثم تغادره إلى خارج البلدة.

يلتفت إلي الرجل، ليسألني:

- هل لك أي تأثير على عباس؟!

وأجيبه:

- بحسب طبيعة الغرض، ما المطلوب مني؟!

ويتكلم بهدوء:

- في الواقع أرسلني شريف لأتكلم معه في أمر بيع داره.

- ومن شريف هذا؟!

- تاجر البناء المعروف، ألا تعرفه؟!

الاسم ليس بغريب، سمعته من قبل، أعرفه، هو الرجل الذي كان يحمل كيساً يشف عن لحم القطط.

في طريق العودة من المقبرة، نرجع في سيارة أجرة، أنا والرجل وعباس.

صمت مطبق، لم يتكلم عباس، لم أتكلم أنا، الرجل الذي لم أعرف بعد اسمه، هو وحده الذي يتكلم.

الحديث كله عن الموت والحياة، الموت حق، كلنا فانون، البقاء للواحد القهار، جئنا إلى الحياة لنأخذ نصيبنا منها ونمضي، لنقوم بدورنا فيها ونمضي.

ثمة تلميح إلى ضرورة البدء من جديد، ولو تقدم العمر.

صوت هادئ، بارد، محايد، مثل صوت اللحاد، وهو يلقي موعظة محفوظة، يكررها عند كل ميت.

غداً يبيع عباس الدار، ينفض الحزن والموت، يشتري داراً في بناء، يفرشها بأثاث جديد، يصبغ شعره، ويشتري ثياباً جديدة، كل شيء سيبدأ عنده جديداً.

يتزوج فتاة صبية، ينطلق في حياة جديدة، ينجب أولاداً حقيقيين.

أسراب الفئران يحملها في حقيبة، ينقلها إلى مكتبه، هناك في القبو، أسفل المديرية يتركها تسرح، يقدم لها الخبز الطازج، فتتكاثر وتتكاثر، تلتهم كل شيء، تلتهم المصنفات كلها، تثقب الجدران، تلتهم وجه المدير، تقرض أنفه وأذنيه.

صوت الرجل ما زال يتردد، يلمح ويلوح ويشير إلى ضرورة التغيير وبناء ما هو جديد، يؤكد أن الفرص دائماً مواتية.

سائق سيارة الأجرة يتدخل، يقول:

- ولكي اذهب عنكم الحزن، اسمحوا لي أن أضع شريطاً في المسجلة.

أغنية مرحة تتثنى وتضج حياة وقوة.

نصل إلى دار عباس، ننزل، تحت أبطي ما تزال الحقيبة الجلدية المطوية.

الرجل يعزيه مصافحاً، ويمضي.

أمد إليه يدي معزياً، أحدق في عينيه، أراهما محتقنتين.

يهمس لي:

- أول مرة أحس حقيقة أني وحدي.

*

وأنا أيضاً الولد الوحيد لوالدي، توفى أبي وأنا في الرابعة، لا أكاد أذكر وجه أبي، أمي لم تتزوج أيضاً بعد وفاته، عشت في رعايتها وحيداً، كنت أتمنى لو كان من

حولي أخوة وأخوات ولكن قليلاً ما كنت أفكر في ذلك تفكيراً جاداً.

يوليني ظهره ويمضي، أحس انفجار الدمع في عينيه.

الحقيبة الجلدية ما تزال تحت أبطي، أمضي بها إلى السوق، لشراء الخبز للأولاد.

*

بعد نحو شهر أو أكثر، وأنا خارج من البناء، يستوقفني ذلك الرجل، الذي لم أعرف اسمه بعد، يقول لي:

- هل تعرف ماذا فعل بنا عباس؟!

هل يعقل مثلاً أن يوقع مع شريف عقد بيع الدار، ويأخذ سلفة، ثم ينكث عقد البيع، أو هل يبيعها لهذا وذاك وذلك، ويأخذ من كل واحد سلفة، أو هل يقوم هو وحده بهدمها وبناء مشروع تجاري فيها؟! أو هل؟! لا أعرف ماذا يمكن أن يفعل؟!

وأسأله مدهوشاً:

- وماذا فعل؟!

ويجيبني، ونحن ما نزال واقفين معاً على الرصيف:

- تصور، طوال شهر، كل يوم نزوره، أنا وشريف، ونحاول اقناعه، وأخيراً اتفقنا معه على شراء الدار، ودعوناه إلى توقيع العقد، وقبض سلفة، ولكنه طلب امهاله يومين فقط.

وسألته متشوقاً:

- وماذا فعل؟ هل باعها لغيركم؟!
- مات.
- مات؟!
- نعم، مات.
- وكيف؟!
- لا أعرف، قرعنا عليه الباب، لم يرد، دفعنا الباب ودخلنا، وجدناه ميتاً، استدعينا الطبيب، فأكد أن الوفاة طبيعية.

ويصمت، ويضرب كفاً بكف، ثم يقول:

- لو أنه وقع فقط عند الشراء.

أذهل عما يقول الرجل، وهو ما يزال يتكلم:

- هل تعرف ماذا سيحصل الآن؟! الدار ستمتلكها الدولة.

*

هل يمكن تحويلها مثلاً إلى متحف؟ أو إلى دار أثرية تمثل نمطاً للبناء في مرحلة ما؟ جدي رفض تحويل داره إلى شيء من هذا القبيل، مرات كثيرة راجعه مبعوث مديرية الآثار، عرض عليه تعويضاً جيداً، ربما كان أكثر مما تستحق الدار في ذلك الوقت، ولكنه في كل مرة كان يرفض، ثم قابل المدير العام للآثار، وأقنعه بوجهة نظره، قال له: داري كانت في وسط المدينة القديمة، ولكن حين فتح الشارع العريض في قلب الحي القديم وأصبحت

داري مطلة عليه، لم تبق لها أي قيمة أثرية، غداً تهدم ويرفع في موضعها بناء، يخدم البلد أكثر من تحويلها إلى دار أثرية، وهذا ما كان حقاً، فبعد وفاته باعها أعمامي اقتسموا ثمنها، أعطوني جزءاً منه، بوصية من جدي، وبهذا الجزء دفعت نصف ثمن الدار التي أسكنها اليوم، وباقي الثمن ما أزال أدفعه أقساطاً للمصرف، تستنزفني شهراً شهراً، سوف تستنزفني عشر سنوات، مضت خمس سنوات، وبقيت عشر سنوات.

نفث جدي مرة دخان نارجيلته، ثم قال لي:

- من احتراقي في الفرن، من عرق جبيني، وفرت ثمن هذه الدار، سكنتها أول الأمر مستأجراً، ثم بعد عشرين سنة من الكدح اشتريتها، وأنا اليوم وريث جدي في الكدح، وداري هي وريث تلك الدار، ولكن أين هذه من تلك؟ ليت لي حجراً واحداً من حجارة جدرانها، أو بلاطة واحدة من بلاط فنائها، على كل حال تحققت نبوءة جدي، هدمت داره، وارتفع في موضعها بناء جديد من سبعة أدوار، فيها على الأقل عشرون منزلاً، تسكنها عشرون أسرة، عدا الدكاكين والمحلات في أسفل البناء، هناك تحتها سوق تعج بكل ما تحتاج إليه، كما تحققت نبوءة جدي أيضاً، أو بالأحرى تحقق ما حذرني منه، لم أستطع الأخذ بنصيحته، أصبحت موظفاً وراء مكتب.

*

أودع الرجل، وأمضي إلى السوق كعادتي كل صباح لشراء الخبز للأولاد، وأنا أحمل تحت أبطي حقيبتي الجلدية.

يخامرني سؤال:

- ما مصير الفئران؟

وأصل دار عباس، فأرى قطاً سميناً يتمشى على سور الدار.

وأرفع رأسي إلى أشجار السرو، فأرى أجواقاً من العصافير تتقافز وتزقزق.

لقاء في غداء متأخر

خبط أبو حسين على الباب بقدمه، وهو يحمل بين يديه صندوقاً فيه طقم كامل من الأواني الزجاجية للمائدة.

أبو حسين في نحو الخامسة والخمسين، وقد انحنى ظهره وهو يحمل الصندوق، وتهدّل بنطاله تحت بطنه، وقد اضطر إلى صنع ثقب جديد في حزامه الذي صنع فيه مثل ذلك الثقب ثلاث مرات، وظهرت الثقوب جميعاً بوضوح.

وحين فتحت له زوجته الباب، وهي دون الخامسة والثلاثين، كان قد ركز الصندوق على ركبته، ومال عليه، وهو يحتضنه بكلتا يديه، ولفرط ميله عليه، لم تر سوى صلعته المغبرة التي حرقتها الشمس.

واضطرت بعد لحظة دهشة وبعد قليل من التلكؤ إلى فتح الشق الثاني من الباب، وقد عانت جهداً في رفع مزلاج ذلك الشق، وهو مثبت في الأرض بحزم، وشعرت بعد رفع المزلاج أن يدها الناعمة قد خدشت، كما أحست أن ما كانت سكبته على أناملها من عطر قد ضاع، واضطرت إلى تأمل أناملها، والاطمئنان إلى أن صبغها الوردي لم يزل.

ودلف أبو حسين إلى المطبخ، يجر خطاه في حذائه الذي كسر طرف فردته اليمنى، وداس عليه بكعب قدمه، بعد ظهور ذلك الدمل اللعين في كاحل القدم.

- أين الخادمة؟!
- جهزت الطعام وانصرفت، زوجها مريض.

وعلى المنضدة وضع الصندوق، ثم رفع غليها وجهه، وهو يتحسس شعر ذقنه الذي لم يحلقه منذ يومين، ويمسح العرق المتصبب بكم قميصه.

- انظري، طقم أركوبال فرنسي.

ردت وهي تمسح زاوية فمها بأظفرها المدبب بعناية، ثم تلعق الزاوية بلسانها، لتطمئن أن أحمر الشفاه لم يطغ على الحد الذي رسمته له.

- عندنا ثلاثة مثله.
- لا، هذا موديل هذه السنة.
- ماذا أفعل به؟
- رتبيه في الخزانة في غرفة الطعام.
- ليس له موضع.
- دبري أمره.

قالت وهي تنتعل حذاءها

- اتركه في موضعه، سأطلب من الخادمة أن تدبر له موضعاً في المطبخ.
- هل أفتح الصندوق لتلقي عليه نظرة.
- لا، أراه فيما بعده، أنا ذاهبة الآن.
- كما تشائين، هل تناولت غداءك؟

- طبعاً، أنت تأخرت كثيراً، هل تعرف أن الساعة الآن الرابعة والنصف.
- على كل حال أنا مستعجل أيضاً، سأتناول لقمتين، ثم أمضي.
- اذن أنتظرك حتى تفرغ من طعامك لتوصلني في السيارة.

نهض، جر خطاه إلى البراد، فتحه، وبصورة آلية تناول منه فروجة، وصحن لبن، وكسرة خبز، وتفاحتين، وضعها على المنضدة، وقعد، ثم لم يلبث أن رجع إلى البراد، تناول منه زجاجة ماء، ووضعها على المنضدة إلى جانب كأس.

كانت في تلك الأثناء تنظر إلى مرآة صغيرة مثبتة في الغطاء الداخلي لحقيبة يدها، وتتأكد من استقرار الكحل في رموش عينيها.

قبل أن يشرع في تناول طعامه، قال لها، وهو يناولها حلقة مفاتيحه:

- خذي، أحضري لي مبلغاً معقولاً.
- ماذا ستشتري اليوم؟
- قطعة أرض.
- يكفيك خمسمئة ألف؟
- هات ثماني مئة.

أخذت منه حلقة المفاتيح، وخرجت.

أمسك بفخذ الفروجة، وأخذ يقضم اللحم الأحمر، ثم امتدت يده إلى صدر الفروجة، فمزقت الجلد، وانتزعت اللحم الأبيض، وأخذ يزد رده، وهو يصب في فمه اللبن الرائب، وما يفتأ يغمس بأصابعه قطع الخبز في دهن الفروج ثم يدسها تحت أضراسه.

حين رجعت كان قد بدأ في قضم التفاحة الأولى، وقد ثنى قدمه اليمنى، ووضعها في حجره، وهو يراقب الدمل في الكاحل، ويجسه بأصابعه.

وضعت رزم النقود على المنضدة، وناولته حلقة المفاتيح، فقال لها:

- تعالي انظري، هل تنصحيني بالذهاب إلى المستشفى من أجل هذا الدمل اللعين، أم أتركه؟

ردت:

- كما تشاء.

ثم سحبت من رزم النقود عدة أوراق، وهي تقول:

- سآخذ خمسين ألفاً.

نهض، وهو يقضم التفاحة الثانية، وقال:

- لماذا؟

- سأعطي أحمد عشرة آلاف، سيسافر مع أصدقائه إلى البحر.

- والباقي؟

- سأشتري بعض الثياب لي ولسناء، ولا تنسى بعد ذلك الكوافير، وراتب الخادمة، هل هذا كثير؟ لو تعرف مصروف الجيران؟!

- على كل حال لم أقل أي شيء.

ألقى بقية التفاحة في الصحن الذي كان يأكل منه، ثم سحب منديلاً ورقياً من صندوق موضوع على المائدة، مسح به أصابعه، وهو يلعقها، ثم رمى بالمنديل في الصحن أيضاً، وحمل رزم النقود، وجر خطاه نحو باب المطبخ، وقبل أن يخرج التفت إليها وسألها:

- هل عندك هنا في المطبخ شيء أضع فيه النقود؟

- لا أعرف، لو كانت الخادمة هنا ربما دبرت لك كيساً ورقياً.

وصمتت برهة، ثم أضافت:

- متى ستشتري لنفسك حقيبة ولو صغيرة.

لم يجب بشيء، خرج من باب المطبخ، وهو يقول:

- هل أنت جاهزة؟

ردت عليه:

- نعم.

ثم أضافت:

- هل أحضر لك قميصاً غير قميصك؟

التفت إليها مدهوشاً، وهو يحتضن رزم النقود، ثم قال:

- ولماذا؟

- الغبار فوق قميصك بسمك الإصبع، وعلى كتفك بقعة اسمنت واضحة.

جر خطاه في الردهة وهو يقول:

- لن أغيره، هذه ثياب العمل، كل الناس تعرف أني تاجر بناء، وأني أتنقل طول اليوم من مشروع إلى مشروع.

ثم تنبه إليها، وقد وقفت أمام مرآه في الردهة، تلقي نظرة أخيرة على مظهرها، فسألها:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

فردت عليه، بآلية:

- ذاهبة الآن إلى الكوافير، ثم سأنزل إلى السوق، وبعد ذلك سأمر بأمي، وأذهب معها لنسهر عند أختي، ستأتي إليها كل صديقاتها، اطمئن ولو تأخرت، زوج أختي سيوصلني بسيارته.

- حتماً سأرجع قبلك، ولا أريد أن توقظيني حين عودتك، فأنا متعب، ويجب أن أستيقظ باكراً، لأشرف على العمل في المشروع الجديد.

ورن جرس الباب، وهو مايزال في منصف الردهة، فالتفت إليها وسألها:

- من أتى في مثل هذا الوقت؟

نظرت إلى ساعة يدها، ثم قالت:

- لا أظن أستاذ سناء، الآن موعد درسها.

اتجه نحو الباب، وفتحه فإذا هو أمام شاب في نحو الثلاثين، فسأله:

- حضرتك أستاذ سناء؟

- نعم.

- تفضل.

ومر الأستاذ به، وفي الردهة وقف يحيي السيدة، ومدت إليه يدها، فصافحها بأدب جم، وهو يقول لها:

- كان بودي أن أراك لأحدثك عن سير دروس سناء.

والتفتت إلى زوجها، فرأته قد خرج، تاركاً وراءه الباب مفتوحاً، فقالت للأستاذ:

- أرجو المعذرة، فأنا على موعد هام، أراك فيما بعد، سناء في الداخل، تنتظرك.

وأسلمت إليه يدها ثانية، فصافحها، ثم نزلت على الدرج مسرعة، وحين دخلت في السيارة إلى جانب زوجها، كان قد شغل المحرك، وعلى الفور انطلق بها.

كانت رزم النقود تستقر بينهما على المقعد.

ومرت فترة صمت طويلة قبل أن يسألها:

- لماذا الأستاذ والدروس الخصوصية؟ سواء نجحت أم لم تنجح لن تفيدها الدراسة شيئاً، لن تتوظف، ولن تعمل.

ردت عليه:

- هذا الموضوع تحدثنا فيه من قبل، لا أريد أن أعيده مرة أخرى، كل الناس يعطون لأولادهم دروساً خصوصية، حتى الفقراء أنفسهم، هل نحن أقل منهم؟

- هذا صحيح، ولكنهم يعطون أولادهم الدروس إذا كان عندهم امتحان شهادة.

- وهل نسيت؟ أم أنك لا تعرف أن سناء في الثالث الثانوي، وعندها أيضاً امتحان شهادة؟!

- ماذا ستنفعها الشهادة؟! أنا ما عندي شهادة ولا شيء، حتى لا أكاد أعرف غير كتابة اسمي، لو كان معي شهادة لما كان معي ولا نصف ليرة.

ثم انعطف بحدة، ودخل في شارع رئيسي مزدحم، وهو يقول لها:

- على كل حال لا توجعي راسي، هذه أمور لست متفرغاً لها، تصرفي كما يحلو لك، فأنا عندي أعمالي، يكفي أن أقدم لك كل ما تطلبين.

نزوة

منذ زمن وأنت تمني نفسك بذلك، ولا تعرف كيف تحققه، والآن واتت الفرصة، مصادفة، القدر هو الذي ساقك إليها. هيا، فلتصعد الدرج، إن أحداً من الجوار لم يرك، أو أنك على الأقل لم تر أحداً، تتعثر خطواتك عند الدرجة الأولى، ولكن لا يمكن أن تتعثر بعد ذلك اضبط نفسك، اخترع ما يمكن أن تخترعه من الحجج، ابتكر مسوغات لهذه الزيارة المفاجئة، علل عدم حضور زوجتك معك بمرضها، أو غضبها منك، لا بأس في الغضب، عندئذ تستثير عاطفتها نحوك، على كل حال، بعد أن تدخل البيت كل شيء يمكن أن يقال، أو يفعل، لقد جئت للفعل، لا للقول.

في السهرة تجاذبك أطراف الحديث، وتضحك لمزاحك، تضحك كثيراً، كأنما تتفجر ضحكتها في الأعماق، وتستجيب لنظراتك، ولكنها لا تتجاوز ذلك، لعلها لا تجرؤ، أو لعلها لا تدرك ميلك إليها، فتخشى أن تكون هي المبادرة، أو لعلها تقبل ذلك كله منك على سبيل الخلطة والتسلية، ولا يذهب بها التفكير إلى ما هو أبعد من ذلك، ولكن لا يعقل، عيناها تنضجان رغبة، وضحكتها تواصل فاضح، مهما يكن الأمر، الآن فرصتك الأولى، بداية الطريق، غداً تزورها كل يوم.

ما أجمل أن يكون للرجل عشيقة، ينطلق من إسار البيت، يتخفف من بعض الأعباء والمسؤوليات، يشعر أن هنالك في العالم امرأة تنتظره، تفكر فيه، هي له، تمنحها بعض أوقاتها، خلسة، ولا تطلب منه شيئاً من حاجات البيت، ولا تحمله شيئاً من تكاليف الحياة ومسؤولياتها، الزوجة لا تعودك سوى شراء الحاجات وحملها وتناول الطعام، والنوم عصراً، ثم تمضية الوقت مع الأولاد ومتابعة مسلسلات التلفزيون، وإذا بطنك تتكور وتمتد إلى أمام، ويتساقط شعر رأسك، ويترهل جسمك، وتسير في الشارع، فلا تستطيع النظر إلى وجه مليح، فأنت كهل عجوز.

زياراتك الآن ستغير كل شيء، بداية جديدة، لابد من الانطلاق والتغيير والمغامرة.

عافت نفسك الأصحاب والأقارب جميعاً، كنت تزورهم مع زوجتك والأولاد على مضض، وتمضي الوقت في كرب وضيق، ثم تباعدت الزيارات، ثم انقطعت، عدا زيارة نوال، السهرة المفضلة لديك هي بيت نوال، زوجها أحمد كريم ومضياف، سمح النفس، نقي، بريء، وهي طيبة ساذجة، تستقبلك أنت وزوجتك والأولاد، وطفلتها الوحيدة قمر، صورة عن أمها.

الآن عرفت لماذا كنت تهتم بقمر كثيراً، تحملها، تحتضنها، تقدم لها الهدايا، تقبلها، مرة عاتبتك زوجتك على ذلك، وقالت:" ابنتنا سناء أجمل منها" فقلت لها:"

سناء ابنتي، فحبي لها طبيعي وعادي، بل واجب، ولكن قمر شيء آخر".

حقاً إن نوال شيء آخر غير رجاء، في كل سهرة ترتدي ثوباً أجمل من الآخر، كأنها تنتقيه لك، مرة أثنيت على العطر الذي تستخدمه، فما كان منها إلا أن قدمت لزوجتك زجاجة عطر، وحين قلت لها:" لكل عطره الخاص"، لم تفهم قصدك، ولم تدرك غايتك، بل لعلها أساءت الفهم، لا، لقد أدركت ما تريد، ولكنها لا يمكن أن تقول شيئاً في حضور زوجتك وحضور زوجها، كانت تنتظرك منك مبادرة أخرى، أنت الذي قصرت، بل تأخرت، المرأة تشعر قبل أن تفهم، وقد شعرت نوال من غير شك بقصدك، والآن فرصتك.

ما بالك يجف ريقك، وتنقطع دقات قلبك، كأنك لا تحس ولا ترى شيئاً، نوال أمامك، هي نوال بذاتها، تفتح لك الباب، وتستقبلك، وتدعوك إلى الدخول، نوال بثوب المطبخ، يشف عن صدرها الممتلئ، وعيناها تتألقان، ترغب في الاندفاع إلى الداخل، لا تعرف ما تقول.

- أهلاً خالد
- مرحباً نوال
- تفضل

وتدخل تحس بغربة، كأنك تسرق شيئاً أو تقتل، كأنك تشعل ناراً، ولكنك تحس بمتعة، طفل يغافل صديقه، فيسرقه دراجته أو حقيبته أو كتابه، مع أنه هو نفسه لديه

دراجة وحقيبة وكتاب، فعلت ذلك مرة وأنت طفل، فشعرت بمتعة خاصة، ليس فيما سرقت، ولكن في شعورك أنك سرقت.

الباب وراءك مغلق، ونوال أمامك، وأنت وهي وحدكما في البيت، البيت تعرفه ركناً ركناً، ونوال تعرفها، ولكنك تراها أول مرة.

ليست هي نوال التي تعرفها من قبل، ليست زوجة صديقك، ولا المرأة التي تزورها مع زوجتك والأولاد لتمضية سهرة عائلية

إنها الآن كيان آخر.

- أحمد هنا؟

- لا.

أنت تعرف أنه ليس هنا، ولكن لابد من سؤال من هذا النوع، بل لابد من سؤال آخر لا معنى له، بعد ذلك تتهيأ لك السبيل إلى قول ما تريد.

- وقمر؟

- عند جدتها.

- في الواقع، لا أعرف ماذا أقول، كنت أريد، أريد، في الحقيقة، كنت أريد أن أراك، أنت، الآن، لأن رجاء، يا نوال

نوال، لاسمها معنى آخر، له رنين مختلف وأنت تلفظ اسمها، نوال، الدهشة زالت، والاضطراب راح، نوال الآن أمامك، لابد من الجرأة والمبادرة، عيناها

تتألقان، وأنت تثبت عينيك فيهما، وأنت تسكب ذاتك فيهما، تشتعلان رغبة، شفتها السفلى راعشة، والحمرة قانية، الخطوط والمسام في العنق تدعوك.

- خالد، أنت مضطرب، أخبرني ماذا في الأمر، ما بال رجاء، ماذا حصل لها؟!

- آه، لهذا جئت، أنا في حاجة إلى هذه الزيارة، ولكن أحس أني متعب من صعود الدرج، أرجوك أعطني كأس ماء، واسمحي لي بالمضي إلى غرفة الضيوف.

أحسنت الآن صنعاً، يجب أن تكون مهذباً، الاقتحام المفاجئ غير مرغوب، لا بد من الحيلة والمراوغة، نسيت أن هذه أول مرة، ونسيت أن نوال طيبة وساذجة، ولا شك أن الاضطراب بدا عليك واضحاً، يمكنك الآن في غرفة الضيوف أن تكون أكثر اطمئناناً، ستتصرف الآن بصورة أكثر حرية وانطلاقاً، وقوفكما وراء الباب كان غير مريح، وحين تحضر كأس الماء يجب أن تمسك بمعصمها، وتجذبها إليك، أولاً، يجب أن تتريث.

- شكراً، سلت يدك.

أناملها، وهي تناولك كأس الماء، باردة جداً، هل هي خائفة؟ هل هي مضطربة؟ تتلقى اللمسة من غير اضطراب، ولا تنفر ولا تستجيب، هل حسبت اللمسة عادية؟ أو ردتها إلى المصادفة؟

لقد دخلت وهي تخطر في مشيتها، راقبتها بقوة، واحتويت جسمها بنظرتك، لاحظت ذلك، ولكنها لم تنفعل، صدرها الممتلئ يرتج وهي تمشي إليك، والثوب يلتف بفخذيها.

وماذا بعد؟! الانتظار يتيح لها فرصة التفكير، والتفكير يعوقك ويعوقها، ما العمل الآن؟ انهض واقترب منها.

- ما أجمل عطرك؟! العطر هو نفسه دائماً.

- شكراً، ولكني لم أضع عطراً، كنت في المطبخ، إنها رائحة الطعام.

- إنها رائحتك الخاصة يانوال، رائحة المرأة، أجمل من كل العطور، حتى ثوب المطبخ هذا أجمل من كل الأثواب.

ساعدها البض في قبضتك، وأنت قبالتها، في باب الغرفة، تحس دفئها، يدك ترتعش وصدرها الممتلئ يخفق، وجهها يشحب، تحس النبض في ساعدها، عيناها السوداوان تراهما أول مرة، عينان ثابتتان، لا تقولان شيئاً، ترد شعرها إلى الوراء.

- رجاء أنت أروع امرأة في العالم، أنا

ضحكتها العميقة تفجؤك، تفلت ساعدها من قبضتك، ثمة شيء يضطرب في صدرك، ما عدت تراها، عيناك زائغتان، ضحكتها تشلك، لماذا هذه الضحكة، ضحكة

عميقة طويلة متصلة، وهي تتثنى، وتضع يدها على خصرها، لا تستطيع أن تمسك نفسها من الضحك.

ثم توليك ظهرها، وهي ماتزال تضحك، غبية، لا تفهم شيئاً، لا تحس ولا تشعر ولا تعقل، امرأة أمام رجل راغب، وهي لا تستجيب، مرض، جنون، حمق، وبعد ذلك تضحك، إما أن تصفعها، وتأخذها بين يديك عنوة، وإما أن تخرج، وتصفق الباب وراءك، ولكن يجب أن تصبر قليلاً، إنها وهي في الردهة، وراء الباب، أشهى ما تكون، يدها إلى الجدار، والأخرى إلى خصرها، تسد عليك الطريق، تتلقاك بجسمها، وعينيها، وصدرها، عيناها تنضحان الآن رغبة، عيناها تلهبان جسمك، وتثيران فيك خدراً، تحس بوهن، تحس باندفاع، ما أروعها، وهي تثبت فيك عينيها.

- خالد، لا تظن أني غبية، لقد فهمت غايتك فور دخولك البيت، ولكنني تريثت قليلاً، ولم أشأ اتهامك، ولكن تأكد لي بعد ذلك جنونك، يا خالد ما تفكر فيه جنون، لا تنس أنك صديق زوجي، وأنا بعد ذلك لم أفكر أبداً بما تفكر فيه أنت، راجع نفسك يا خالد، وكن عاقلاً.

كاذبة، مراوغة، تحاول أن تتمنع، لكنها سوف تستسلم بعد قليل، تريد معرفة حقيقة مشاعرك، الآن بدأ الفعل، الخطوة الأولى الآن.

- أنا أحبك.

- لا، أرجوك، لا تقل هذه الكلمة، أنت تحب زوجتك رجاء.

- لا، لا تذكري رجاء، أنا وأنت وحدنا، رجاء ليست معنا.

- ولكنك أنت الذي تذكرها، لم تدر ما قلت يا خالد منذ قليل، ولم تسألني عن سبب ضحكي، خالد، أنت خاطبتني منذ قليل وكأنك تخاطب زوجتك، وقلت لي: رجاء.

- أنا؟!!

- نعم، أنت.

ضحكتها الآن مختلفة، ضحكة هادئة، باردة، تصيبك في مقتل، تسخر منك، تدنيك، تفضحك، ولكن لا تتراجع.

- زلة لسان، يا نوال، أنت

- لا يا خالد، لا تقل لي شيئاً، واذهب إلى زوجتك وقل لها ما تريد أن تقوله لي، فهي أولى مني بما ستقول، ولا تنس بعد ذلك أنك أب لثلاثة أطفال، وقد قلت لك أني لا أفكر فيما تفكر فيه أنت، بل إني لا أشعر نحوك بما قد تشعر نحوي، وأرجو أن تفهم معنى هذا الكلام، وأنا أعيده على مسمعك.

ليكن، لا قيمة للمشاعر هنا، المهم أن تنال منها ما تريد أن تنال، المهم هو مشاعرك أنت، لا مشاعرها هي، المشاعر تتولد بعد اللقاء، الجسد هو أولاً، يكفي أن تنال

منها أول مرة، حتى تزرع فيها المشاعر، بل لا ضرورة للمشاعر، تنالها، ثم تهددها، ثم تعتاد هي ذلك، وتصبح عشيقاً، تزورها كل يوم، بل تتأخر عنها يوماً أو يومين، فإذا هي تعاتبك، وتدعوك إلى زيارتها دائماً، فكرة رائعة، تصنع الآن الغضب، وتهم بالخروج، ثم تقف عند الباب وتلتفت إليها فجأة، ثم تضمها إليك.

- أنا خارج يا نوال، لقد أسأت إلي بكلامك، أنت لا تعرفين ما قلت، لقد جرحت مشاعري، أنا خارج، ولن أزورك بعد اليوم، لا أنا ولا زوجتي، ولا الأولاد، وستندمين على ما قلت بعد أن أخرج، بل ستندمين لأنك كنت قاسية، أنا خارج، و

- لا يا خالد، أنت الذي ستندم بعد خروجك، وستأتي لزيارتنا غداً مساء، أنت وزوجتك والأولاد، غداً عيد ميلاد قمر، وقد ذهب أحمد لدعوتك.

- أحمد؟!

- نعم.

- ولماذا لم تخبريني من قبل؟

- لقد أذهلتني، ولو ترى صورتك وأنت داخل علي، كنت، بصراحة يا خالد، كالوحش.

أنت أحمق حقاً، لقد رأيته في حيك، كان في الطريق اذن إليك، ليدعوك وزوجتك والأولاد إلى عيد ميلاد قمر،

ولكنك واريت وجهك عنه، اختفيت وراء المارة، ثم أشرت إلى سيارة أجرة، وأسرعت على الفور إلى بيته، لتقتنص زوجته في غيابه، وهو الآن في بيتك يقتنص زوجتك، يجب أن تخرج على الفور.

- ماذا بك يا خالد، لماذا تغير لونك؟

- لا، لا شيء.

- خالد، أنا أعرف ما تفكر فيه، لا شك في أن أحمد قرع باب دارك، ولا شك في أن زوجتك قد أذنت له في الدخول، لانتظارك، وهي تقدم له الآن القهوة.

- لا، أنا لم أفكر في ذلك.

- لا، بل تفكر فيه، ولكن زوجي ليس طائشاً مثلك، وأنا أثق فيه، كما أثق في زوجتك.

إنها تتعمد الإساءة إليك، لتغيظك، ولتخرج غاضباً، ولكنها لن تكون أذكى منك، إنها طيبة، ولكن ليست ذكية، لن تخرج قبل أن تأخذ بعض ما دخلت لأجله، أظهر العنف واللين، اعتذر إليها، مد يدك إليها مصافحاً، أوهمها أنك ستخرج ثم اجذبها إليك.

- نوال، أنا خارج، سامحيني.

- يا خالد، أنت لم تسئ إلي، ولكنك أسأت إلى نفسك، وأنا أسامحك وأمد يدي إليك لأصافحك.

نوال تدمرك، لقد عرفت ما بنفسك، وأدركت كذبك، لا يمكن أن تكون صادقاً، دع يدها، اتركها، لم يبق لك بعد ذلك شيء، سوى أن تقول لها إني جدير بشفقتك، وأتوسل إليك أن تضميني إلى صدرك مثل طفل صغير، هيا، يجب أن تخرج قبل أن تقول شيئاً من ذلك، قبل أن تطردك.

- أنا خارج، يا نوال.
- هل ستأتي غداً مع زوجتك والأولاد؟
- لا أعرف.
- ليس لأجلي، لكن لأجل الأولاد يا خالد، لأجل باسم وسناء وجمال، لأجل قمر.
- نوال، لن تري وجهي بعد الآن.

خطواتك تسقط على الدرج، تتعثر، تهوي، والدرج تحتك يغوص، يمتد إلى العمق، لا ينتهي، وأنت تسقط إلى القاع، إلى الحضيض، إلى الأسفل، وعتمة خانقة تحتويك، ظلمة كريهة تكفنك، والمصعد بعيد بعيد، كأنه لا منفذ.

عودة الموظف إدريس إلى بيته

منيبة في المطبخ وحدها تنتظر، بين يديها كرة الصوف، تغزل، وتنتظر، تركت النار تحت القدر هادئة، وانتظرت، نضج الطعام، وانتظرت، وهي ما تزال تغزل الصوف، وتنتظر.

منى ابنتها تأخرت، زوجها إدريس تأخر.

منى متوعكة، وهي عائدة من المدرسة يوم أمس غسلها المطر من فرقها إلى قدمها، أوصاها أبوها قبل خروجه إلى وظيفته ألا تذهب إلى المدرسة، ولكنها أبت.

هل أصيبت بحمى؟ هل انتكست؟ لماذا تأخرت؟

وإدريس تأخر، تأخر، تأخر كثيراً.

يداها تغزلان الصوف، وتنتظر.

*

إدريس وحده ينتظر.

في غرفة كئيبة ذات جدران زرقاء باهتة، ليس فيها سوى منضدة معدنية قديمة، وبضعة كراسٍ، يقعد إدريس على كرسي صغير، وينتظر.

الثواني تمر، الدقائق تمر، ربع ساعة، نصف ساعة، ثلاث أرباع ساعة، ساعة، وهو وحده، ينتظر.

في حجره كيس صغير، يشف عن خمس ليمونات صغيرة، أرخى فوقها يديه، منكس الرأس، متهدل الكتفين، ينتظر.

كان إذا طال انتظاره تمشى على الرصيف جيئة وذهاباً، وإذا طال أكثر أشار إلى سيارة أجرة، كان منذ خمس سنوات، منذ عشر، واليوم اختلف كل شيء.

تقف سيارة أجرة، أشارت إليها سناء، مديرة الشؤون المالية، تفتح باب السيارة، تشير إليه، تدعوه، يعتذر، وتنطلق بها السيارة.

سناء عانس في الخامسة والثلاثين، تملك داراً تعيش فيها وحدها، ولها رصيد جيد في المصرف.

لابد أن تأتي الحافلة، لابد من الانتظار ولو طال.

في ظل الجدار يقف، وراء المنتظرين على الرصيف، يمناه مرخية على جانبه، وفي يسراه يحمل في تراخ كيساً صغيراً، يشف عن خمس ليمونات صغيرة.

واقف لا يتحرك، حتى الليمونات في الكيس لا تتحرك، لا ينقلها من يد إلى يد، لا يحركها.

المنتظرون هادئون صامتون.

سيارات الأجرة تمر متباطئة، تنتظر إشارة من أحد، السيارات الخاصة تمر مسرعة.

مرت سيارة معاون المدير، ومن قبلها بزمن مرت سيارة المدير، لابد من انتظار الحافلات، ولا أثر لها.

جموع الموظفين تقف، تتجمهر، في صمت وكدر.

جموع الموظفين تخرج من مبنى المديرية، تتدافع، تنساق إلى مواقف الحافلات، لعل حافلة تأتي مبكرة، ولا جدوى.

الشمس المائلة ترسل أشعتها الفاترة على الأجساد الرطبة، تتسرب إلى أكتاف متهدلة، توجع أعيناً مرهقة أثقلتها الأضابير والمصنفات.

ثلاثة عصافير أو أربعة على أغصان شجرة يابسة تتقافز من غصن إلى غصن، ولا تزقزق، الأغصان سوداء كالحة.

ضجيج يعلو، لغط يطغى، يقترب منه شيخ عجوز، يدب على عصاه، يسأله:

- ماذا حصل؟

- لا أعرف.

يلتفت العجوز إلى شاب قادم، يعيد عليه السؤال، فيجيبه الشاب:

- رجل سرقت محفظته.

ويعلق الشيخ العجوز:

- هذا شيء يحصل مثله كل يوم.

ثم يدير ظهره، ويمضي.

اللغط يزداد، يقوى، ثم يتلاشى مع وصول حافلة، يندفع إليها حشد من المنتظرين، في تدافع وتزاحم.

إلى متى سيبقى وحده، هنا بين الجدران الزرقاء؟ هل تركوه ومضوا؟ هل نسوه؟

الباب مغلق، والمنضدة باهتة، والجدران عليلة.

ليته ذهب مع سناء.

على الرصيف في انتظار الحافلة لم يتحرك، لم يرفع يداً عن يد، لم يرسل زفرة، لم يصعد آهة، لم يتطلع إلى شيء، ماذا فعل؟!

من المحل في أسفل المديرية اشترى نصف كيلو، خمس ليمونات صغيرة بخمس عشرة ليرة، كل ليمونة بثلاث ليرات، نزل من الدور الرابع، غادر مقر عمله، هبط على الدرج مسرعاً، ورجع مسرعاً، وهو يحمل الليمونات.

لأجل منى اشترى الليمونات.

طلب لنفسه كأس شاي، حين أحضره الآذن تمنى أن يعصر فوقه قليلاً من الليمون، ولكن لم يفعل.

هل في الإمكان مغادرة المديرية والإسراع للبيت للاطمئنان على منى؟! سيحتاج إلى أكثر من ساعة.

حافلة تأتي، يحشر الناس فيها أجسادهم، يتزاحمون، يتدافعون.

عجوز متهدم يحمل بين يديه صحفاً ومجلات، ناء بها ظهره، وبرزت بين كتفيه حدبة ناتئة، يطوف على المنتظرين، يعرض بضاعته.

صوت الهرم يكرر نداءه:

" الجماهير" " التقدم" " الرخاء"

ماذا فعل؟!

ليته يتدافع مع الناس، زحم هذا، ودفع ذاك.

ينهض، يتمشى، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

لا نافذة، ولا كوة.

يراجع ماضيه كله.

لم يشتم أحداً، ولم يتكلم في أي موضوع، ولم يخالف في رأي، ولم يقصر في شيء، ولم ولم ولم ولم، لا في العمل، ولا في الشارع، ولا في البيت، لا أيام الدراسة، ولا أيام الشباب، ولا ولا ولا.

سحقاً للإجازة التي حصل عليها، ست سنوات شغل فيها نفسه بشراء الكتب والقراءة والتحضير، إلى جانب عمله ومسؤوليات البيت والزوجة، حتى نال الإجازة في اللغة العربية.

ماذا أفادته؟!

عشرة كتب أنشأها اليوم، كتاب طلب أثاث للمديرية، كتاب استفسار، كتاب تعيين موظف جديد، كتاب عقوبة، كتاب وكتاب وكتاب... كلها كتب مستعجلة.

يرجع إلى كرسيه، يقعد، يضع الليمونات في حجره.

عشر سنوات أمضاها وهو موظف على إجازة الحقوق، عمل مدققاً للقرارات، ولما نال الإجازة في اللغة العربية كلفه المدير بوظيفة كاتب، ينشئ القرارات بنفسه، ويدققها.

زاد عمله، ولم يزد راتبه، ولم تتغير مكانته.

العصافير الكالحة على الأغصان السوداء تتقافز، ولا تزقزق.

الشمس تميل أكثر فأكثر.

الشتاء أقبل مبكراً، ولابد من شراء معطف لمنى، لابد من حذاء شتوي.

ومنيبة في البيت وحدها تنتظر.

"صدقة يا محسنين"

بين المنتظرين على الرصيف متسول يروح ويجيء، يمد يداً معروقة، يرسل صوتاً مبحوحاً، يسأل، يسأل، في إيقاع رتيب.

هو الآخر ينتظر.

يفتح باب الغرفة، ويدخل شرطي.

الشرطي يعبر الغرفة بهدوء، الشرطي يقعد وراء المنضدة، الشرطي يختلس النظر إليه، الشرطي ينقر بأصابعه على المنضدة بصمت.

كيف حضرت سيارة الشرطة فجأة؟ لا يعرف؟!

أمام المنتظرين على الرصيف وقفت، كانت تتهادى، وقفت ونزل منها شرطيان.

المنتظرون على الرصيف يفسحون الطريق للشاب وهو يدفعه، يرى أعينهم تتطلع غليه، يسمع أصواتهم تغمغم:

- ماذا فعل؟
- ربما قال كلمة بذيئة لامرأة.
- ولكنه كهل عجوز.
- سرق محفظة الرجل.
- غير معقول.

- يبدو عليه الوقار.
- لاتخدع بالمظاهر.

يد الشاب تمسك به من رقبته، وتدفعه.

يذهل حين صاح به:

- امش معي أيها السافل.

أمام سيارة الشرطة يقول له:

- ولكن أنا لم أفعل أي شيء؟!
- لا تنطق بكلمة، وإلا دستك بحذائي أمام الناس.

لا يصدق كيف حدث ذلك كله فجأة وبسرعة، هل شل؟! هل عمي؟! هل خرس؟!

السيارة تنطلق به، والشمس تنحدر إلى المغيب.

لم يقل له أنه حاصل على إجازة الحقوق ويعرف القانون، لا يحق له أن يلقي عليه القبض من غير مذكرة.

كل شيء حدث فجأة.

ومنيبة في البيت تنتظر.

ينظر إلى الشرطي، الشرطي يحملق في سطح المنضدة، حيث لا شيء.

ينهض، يحمل كيس الليمونات الصغيرة، يتجه إلى الشرطي، يسأله:

- أرجو أن تخبرني لماذا أنا هنا؟

الشرطي ينظر غليه طويلاً، ثم يقول له:

- انتظر، بعد قليل رئيس المخفر سيحقق معك بنفسه.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

- من حسن حظك أن سيادة النقيب رجع إلى المخفر من جولته في المدينة، لم يذهب إلى البيت، وإلا كنت بقيت إلى صباح اليوم التالي.

إدريس يسأل:

- ولكن أخبرني، ماذا فعلت؟!

الشرطي يصمت، يتأمله طويلاً، ثم يقول له بهدوء:

- هناك تقرير، قدمه الشاب، وهو شرطي جديد عندنا، يدعي فيه كل يوم، وقت انصراف الموظفين، في نفس المكان على الرصيف، لتراقب أخته في الشرفة المقابلة، مستغلاً فرصة الزحام.

إدريس يذهل:

- أنا؟! أنا أنظر إلى أخته؟! هل تتوقع مني مثل هذا؟! أنا العجوز؟!

يرجع إلى كرسيه، يلقي بثقله كله عليه.

العصافير على الأغصان المعروقة كانت تتقافز، تنط، ولا تزقزق، لم يراقب سوى العصافير، هل كانت أخت ذلك الشاب الشريف في نافذتها في شرفتها على السطح وراء تلك العصافير؟!

ينهض ثانية، يتجه إلى الشرطي، يقول له:

- أنا موظف، وعندي زوجة وبنت، بنتي متوعكة، هل؟ لا أعرف ماذا أقول؟!

يعلو رنين جرس، الشرطي يقول له:

- سيادة النقيب يطلبني أعطني بطاقة هويتك، لأستأذن لك في الدخول عليه.

إدريس يناوله بطاقته، الشرطي يأخذها، ويمضي.

*

منيبة في المطبخ وحدها، تنتظر.

تغزل الصوف وتنتظر.

ماذا تفعل، ماذا يمكنها أن تفعل؟ بمن تتصل؟ من تسأل؟

تقلق، تجن، تنتظر.

دار الجارة لها شرفة مطلة على الشارع، تمضي غليها، تقرع عليها الباب، تحدثها عن قلقها، وتمضيان معاً إلى الشرفة، تقفان فيها، تنتظران.

بداية الشتاء، والعتمة حلت مبكرة، والأشخاص يبدون كالأشباح في غبشة المساء، والريح فيها شيء من الرطوبة.

ازدادت كدراً.

- لا تقلقي، كل الرجال يتأخرون، إذا لم يتأخر بسبب عشيقة، تأخر بسبب صديق، في كل الأحوال لابد من التأخر.

هكذا تقول لها الجارة.

تشعر بالضيق، تعتذر، تهم بالعودة إلى البيت، الجارة تصيح:

- انظري، هذا هو زوجك، نزل من سيارة خاصة، وهذه يد فتاة صبية تمتد من النافذة تشير إليه مودعة.

يطفر الدم إلى وجهها، تحمر وجنتاها، ترد عليها:

- لا، ليس زوجي.

الجارة تضحك، تقهقه عالياً، تضيف:

- قلت لك، أنا رأيته بعيني، أنت لم تلاحظي، على كل حال لا تغضبي، زوجي ليس أفضل من زوجك.

منيبة تندفع إلى الباب، تودع جارتها، تعتذر إليها، وتخرج.

لا، ليس إدريس، وإذا كان هو فليس صحيحاً ما روت الجارة، ربما صادف وقوف السيارة بجانبه، وربما كانت الفتاة تشير إلى سواه، إدريس قد يرجع إلى البيت ماشياً، ولكنه... لا يعقل.

تقف خارج الدار، تطل على الدرج، تنتظر.

*

رئيس المخفر ينهض من وراء مكتبه، يتجه إليه مرحباً:

- أهلاً أخي إدريس.

إدريس يذهل، يرد بفتور:

- أهلاً.

رئيس المخفر يصافحه، يدعوه إلى مقعد أمام مكتبه، ثم يقعد قبالته، وهو يتلقاه بوجه باسم:

- أهلاً أخي إدريس، لا شك أن سوء فهم قد حصل، على كل حال هذا كله غير مهم، الأهم هو أن تكون قد تذكرتني.

إدريس ينظر إليه، يحدق فيه مذهولاً، صمته المطبق يؤكد عدم تذكره أي شيء.

رئيس المخفر ما يزال يبتسم، ينقذه من الإحراج، يتكلم:

- لك الحق في ألا تتذكرني يا إدريس، أما أنا فأذكرك جيداً، نحن زملاء في كلية الحقوق، كنت متقدماً علي بسنتين، وقد حضرت حفل تخرج دفعتك، كنت أنت الأول، أما أنا فقد تخرجت بعدك بثلاث سنوات، تخلفت سنة واحدة...

صورة شاحبة، غامت فيها الألوان وبهتت، هدها الجوع والتعب وطول الانتظار، لا شيء يقدح في الذاكرة، سوى المرارة والخيبة، الأول أو الثاني أو الأخير سواء سواء، لا فرق إلا في القهر والخيبة.

- لعلك لا تذكر زميلك عامراً؟

يقابله بابتسام، يرد:

- أهلاً، أهلاً.

ما يزال النقيب عامر طلق الوجه، يتكلم بحيوية وقوة:

- على كل حال، لا تؤاخذني، أرجوك، اعتبرني المسؤول المباشر عن كل ما حصل.

إدريس يتكلم بقهر:

- ولكن لنفترض أننا لم نكن زملاء، ولم تتعرف إلي، ماذا كان سيحصل؟!

النقيب عامر يرد بهدوء:

- لابد من وقوع الأخطاء دائماً، ولكن لابد أيضاً من اتضاح الحق، وفي النهاية كما يقال لا يصح إلا الصحيح، كن على يقين من ذلك، والآن سأوقع عقوبة قاسية في الشاب، لأنه تصرف من غير مذكرة، وفي خارج أوقات خدمته الفعلية، وهو في الزي المدني، كما سأعاقب الشرطيين لتعاونهما معه، صدقني كل شيء بحساب.

إدريس يرسل زفرة، ثم يعلق:

- لا قيمة لكل ما حصل، لقاؤك في الواقع أنساني كل شيء، والعبرة دائماً بالخواتيم.

النقيب عامر يجدد ترحيبه به، يؤكد بهجته بلقائه، كما يؤكد له إعجابه به منذ أيام الزمالة، ثم يسأله عن العمل ومشاريع الحياة.

كل شيء يختصر في كلمات:" الوظيفة، البيت، الزوجة، البنت".

الشهادة الثانية لم تنفعه في شيء، لا يحدثه عنها.
النقيب عامر دائماً يتلقاه بابتسامة عريضة، ثم يعلق:
- كبرت، كبرت كثيراً يا إدريس، تبدو أكبر من عمرك.
- مسؤوليات الحياة.
- أعرفك دائماً تحب الجد، الحياة لا ينفع معها ذلك كله.
القهوة ممتعة، كأنه لم يشرب منها منذ دهر، ولكنه قلق، منيبة في البيت تنتظر، ومنى غسلها أمس المطر، وهي متوعكة.
على مكتب صديقه ثلاث هواتف، لو كان في البيت هاتف لاتصل بزوجته وطمأنها، واطمأن على منى.
يشكره للقهوة، ثم يستأذن في الانصراف.
النقيب عامر يستدعي سائقه الخاص، يطلب منه إرسال صديقه بسيارته على البيت.
وهو يودعه، ينظر إلى ساعة يده، ثم يقول له:
- أرجو أن تسمح للسائق بالمرور بمدرسة ابنتي، الساعة الآن الخامسة إلا ربع، حان وقت انصرافها، هل لديك مانع؟ يا إدريس؟!
ويرد إدريس مستسلماً:
- لا، لا، أبداً.
وعند الباب يعانقه مودعاً.
*

إدريس يذهل أمام السيارة الفخمة، يقعد إلى جانب السائق، وحين ينطلق به، يلتفت إليه، ليقول له:

- أرجوك يا أخي، لا تسرع.

السائق يضحك، يرد عليه:

- لا أعرف القيادة إلا بسرعة.

إدريس يغوص في المقعد الناعم، يستسلم للسرعة، يرخي يده عن كيس الليمونات لتستقر في حجره.

السائق ينتبه لليمونات، يسأله:

- بكم اشتريت كيلو الليمون؟!

- الكيلو بثلاثين ليرة.

وبتلقائية يفتح الكيس، يمد يده إلى السائق بليمونة، قائلاً:

- خذ، تفضل.

السائق يعتذر:

- لا، شكراً، كان مجرد سؤال، أمس اشتريت من مركز التوزيع كيس ليمون، فيه أكثر من خمسين كيلو، سعر الكيلو سبع عشرة.

إدريس لا يبالي بالاعتذار، يضع الليمونة فوق عداد السرعة، قبالة السائق.

أمام باب المدرسة تقف السيارة، صبية رشيقة تودع صديقاتها بمرح، تندفع إلى السيارة، تلقي بنفسها في المقعد الخلفي، تغلق الباب بقوة، شذاها العطر يغمره.

السائق يقدمه إليها:

- الأستاذ، صديق والدك.

تسأله بعفوية:

- أي مخفر أنت رئيسه؟

يرد بهدوء:

- لا، أنا موظف، كاتب في مديرية الخدمات العامة.

تدهش لكلمة كاتب في المديرية، تسأله عن معناها، فيحدثها عن شهادته الثانية، الإجازة في اللغة العربية بعد الإجازة في الحقوق، ويوضح لها طبيعة عمله.

تصيح بفرح:

- رائع، منذ أسبوع طلبت منا المعلمة كتابة موضوع عن السير والازدحام، الموضوع مطلوب مني غداً، وحتى الآن لم أكتب منه كلمة.

تضع يدها على كتفه، تميل عليه، تتكلم بعفوية:

- أرجو أن تذهب معي الآن إلى البيت لتساعدني على كتابة الموضوع، السائق سينتظرك، وبابا سيسر بذلك.

يعتذر لها، يؤكد لها أنه غائب عن البيت من السابعة صباحاً، وانه قلق على ابنته، وهي متوعكة.

يتمنى لو أن ابنته كانت الآن في المدرسة، لطلب من السائق أيضاً المرور بها، ولكنه تركها في الصباح متوعكة، وقد أوصى أمها ألا ترسلها إلى المدرسة.

هل يراها الآن مصادفة في الطريق، فيحملها معه في السيارة؟!

الصبية في المقعد الخلفي ترى الليمونة، تصيح بلهفة مخاطبة السائق:

- يا كريم، من أين لك هذه الليمونة؟!

السائق يمد يده إلى الليمونة، يحملها يقدمها لها بصمت.

الصبية تتناول الليمونة وهي تهتف:

- شكراً، شكراً يا كريم، لن أنتظر وصولي على البيت، سآكلها الآن، فرط ريقي فور رؤيتي لها، أمام الليمونة لا أستطيع منع نفسي.

منى الآن في الفراش من غير شك، فور وصوله البيت سيطلب من منيبة أن تعصر لها الليمونات، بل سيعصرها هو بنفسه، سيعصر لها الليمونات الأربع.

أمام باب البناء يودعها، يشكر السائق وينزل من السيارة.

تمد يدها من نافذة السيارة، تشير إليه مودعة.

*

منيبة على الدرج تنتظر.

يظهر إدريس وهو يرقى الدرج، متهدماً متهالكاً، وفي يده كيس يشف عن أربع ليمونات.

- لماذا تأخرت يا إدريس؟

- الحق معك يا منيبة، تأخرت عليك كثيراً.

عند الدرجات الخيرة، قبل أن يصل غليها، تسأله:

- رأتك الجارة نازلاً من سيارة خاصة، ويد فتاة صبية تمتد من النافذة تشير إليك مودعة، هل هذا صحيح؟!

يقف ،يلتقط أنفاسه، يبتسم، يهم بالكلام، ويرن وراءه صوت ابنته منى، وهي تسأله:

- بابا، وأنا راجعة من المدرسة، رأيتك نازلاً من سيارة فخمة، أين كنت يا بابا؟!

إدريس يلتفت إلى ابنته، يسألها:

- منى؟! كيف أنت؟! لماذا ذهبت إلى المدرسة؟!

منيبة تسأله، وهي ما تزال أمام باب الدار واقفة:

- أين كنت يا إدريس؟!

يحس بصوتها مخنوقاً، يرى دمعات تتدحرج في عينيها، يضع يده على كتفها، يواري ابتسامة خفيفة، يهمس لها:

- لندخل إلى البيت سأروي لك كل شيء.

منى تدخل إلى الدار، تدخل وراءها منيبة، وفي إثرها يدخل إدريس، ووراءه يغلق الباب.

وضعت صندوق العدة على أرض المصعد، وانتظرت انغلاق الباب، وحين ضغطت على الزر أحسست بألم في ذراعي، لقد انخلعت كتفي من حمل الصندوق، وطوال الطريق أنقله من يد إلى يد، تخيلت المنزل قريباً، فإذا هو بعيد، ولكني وفرت ربع ليرة، أجرة الباص، ومعي من يوم أمس نصف ليرة، لو ركبت في الباص لما وفرت ربع الليرة، لقد أصبح معي الآن ثمن كازوزة، وإذا قدمت لي السيدة عطاء، ولا شك أنها ستفعل، فسوف أذهب مساء إلى السينما، وتبقى عندئذ الأجرة من معلمي سليمة، لا تنقص شيئاً، أعطيها لأمي كاملة.

صدري يخفق، وأناملي ترتعش، وتوهج شديد يشع به وجهي وجسمي، وهي تحتويني بعينيها العسليتين، وكأنها واحدة من الممثلات في الأفلام الأجنبية، ولكن ما بها تتأملني هكذا مدهوشة؟!، لعلها لا تثق بأني قادر على فك غسالة آلية حديثة وإصلاحها؟! أنا أستطيع أن أفعل كل شيء، فقد تعلمت أموراً كثيرة، لا تخطر على بالها، ولا على بال معلمي، لا شك أنها دهشت مثلما دهشت، فقد توقعت أن أرى سيدة عجوز دميمة، تضع نظارتين، وتتوكأ على عصا، وتتعثر في خطواتها، وإذا هي شابة أصغر من أمي، لا شك أن أمي كانت أجمل منها يوم

كانت في عمرها، ولكن هذه فاتنة، إذا كبرت فلن أتزوج إلا واحدة مثلها.

- أنا أمجد، أنا صانع عند المعلم جميل، جئت لإصلاح الغسالة.

- وأين هو؟

- أرسلني قبله، لأفك الغسالة، ثم يأتي هو بعد ذلك.

- تفضل.

أغلقت الباب ورائي، وأنا أحمل صندوق العدة، أحسست أننا معاً وحدنا، انتابني شعور مبهم، أحاول النطق فلا أقدر، أحاول أن أخطو فلا أستطيع، ركبتاي ترتعشان، وأنا أحاول ألا أنظر إليها، وهي ترفع بيدها شعرها، وترده إلى وراء، في حركة تذهلني.

- هل تستطيع أن تفك الغسالة؟

- طبعاً، وأستطيع إصلاحها وحدي.

رعشة تتمشى في مفاصلي، وأنا أطرب لضحكتها الناعمة، وشذاها يغمرني، وهي ما تزال تتفرس في وجهي.

- من هنا، الغسالة في المطبخ.

وأمضي وراءها، قدماها تخطران في حذاء من الفرو الأبيض الناعم، فردتا الحذاء مثل أرنبين أبيضين، لماذا تتفرس بي؟! هل تتأمل بقع الزيت والشحم الأسود تحت عيني وفوق أنفي وفي زاوية فمي؟! أمي أيضاً تحدق بي

حين أرجع مساء إلى البيت، تتأمل بقع الزيت والشحم، ثم تدخلني إلى الحمام، وتغسلني من فرقي إلى قدمي، وهي تنشج وتبكي، لو كان أبوك في قيد الحياة لما وافقك على العمل في تصليح السيارات، كان يحلم أن يراك أستاذ مدرسة، ولكنك أشقيتني وأشقيته في قبره، لا أعرف كيف تعلقت بإصلاح الغسالات، منذ عامين أو ثلاثة أعوام بدأت أستحم وحدي، لقد عرفت كم كانت تتعب في إزالة بقع الشحم والزيت عن يدي ووجهي، ولكن كانت لا تعرف أنه ليس بإمكاني أن أدرس، وليس بإمكانها أيضاً أن تقدم لي مصروف الدراسة، أجرتي عند معلمي جميل هي التي أنقذتها وأنقذتني، لقد وعيت ذلك في وقت مبكر، ولا شك أن أبي في قبره راض عني.

- هذه هي الغسالة.

وضعت صندوق العدة على الأرض وقلت لها:

- هل تسمحين لي أن أبدأ العمل؟

فأجابت:

- تفضل.

فتحت الصندوق، شمرت كم القميص عن ساعدي، تناولت المفتاح 16، قدماها تغوصان في الحذاء الأرنبي، وهي مستندة بظهرها إلى حوض المجلى، وقد عقدت يديها على صدرها، ومن ورائها نافذة المطبخ مفتوحة على سماء زرقاء صافية، وشعرها الخرنوبي ينساب

على كتفها الأيمن في دفقة ناعمة يلامس جيدها الدافئ، ثم يستلقي رخياً فوق صدرها الناهد.

موجة عارمة من لهب تجتاح جسمي وتتغلغل فيه، لتنصب في قبضة يدي اليمنى، وهي ممسكة بالمفتاح، فأحس بدفقة وهج مستعر تلف برودة الحديد الصلد، وأنا ما أزال أرى شعرها الخرنوبي، ومن ورائه زرقة السماء الصافية.

لو نذهب معاً كما في الأفلام إلى قصر على الشاطئ، نبقى فيه شهراً وحدنا، وكل صباح أستيقظ فأراك قد سبقتني إلى البحر، وحين أل إليك، وأنا أعدو على الشاطئ الرملي، تخرجين إلي، من اللجة، والأمواج تزبد عند قدميك، وعلى جسمك تتألق الماء، وشعرك النديان ينسدل على جيدك وصدرك.

- لماذا لا تبدأ عملك؟! هل يضايقك وجودي؟!

- لا، أبداً.

- آه، أعرف، لا يمكنك أن تعمل وأنا أراقبك، سأتركك، فعندي عمل.

وتخطر نحو الباب، فأقول بجرأة:

- أشعر بالسأم وحدي، ولا أستطيع أن أعمل.

وتقف عند الباب، ترد شعرها إلى وراء، وهي تلتفت إلي، قائلة:

- سأحضر من يسليك.

ثم تلتفت إلى الداخل، وتنادي:

- ميشو.

ويقتحم الباب كلب، أرجع إلى وراء، يجف حلقي، ينضحني عرق بارد، ترعدني هزة عنيفة، أحكم قبضة يدي على المفتاح، أكاد أقول لها، لا، أرجوك، خذيه، ولكني أملك نفسي.

- سأترك ميشو عندك، هو لطيف جداً.

انتفضت حين أغلقت الباب وراءها، أحسست أني قد صحوت من حلم جميل، لم أصدق كيف كنت؟ وكيف صرت؟ أحسست أنني خدعت، لو رأيت كلباً معها فور دخولي لكان الأمر قد اختلف، لست أدري لماذا أحس أنني خدعت، وأنا في الطريق توقعت كل شيء، ولكني لم أتوقع سيدة شابة تستقبلني، وقد دهشت حين رأيتها، بل ذهلت، ولكني الآن أكثر دهشة، وأشد ذهولاً، يكاد يغمى علي، ولكن لا بد من الثبات، والعمل عمل، يجب أن أفك الغسالة، وإذا حاول الاقتراب مني سأحطم رأسه بهذا المفتاح.

اتجهت نحو الغسالة، سحبت الشريط الكهربائي من المأخذ، وأنا أتحرك بهدوء، وأراقب الكلب، وهو يراقبني، وقد اتخذ موضعه قرب صندوق العدة، قعد إلى جانبه، وبسط ذراعيه، ومد لسانه، وأخذ يهز ذيله، وعيناه السوداوان الواسعتان تتابعان حركتي، أوليته ظهري، وملت نحو موضع اتصال الغسالة بأنبوب الماء، ألغيت

الاتصال، وأنا ما أزال أوليه ظهري، توقعت أن ينهض ويقترب مني ليتفرج على عملي، ولكنه ظل قاعداً أحسست بنظراته تثقب ظهري، استدرت إليه، التقت عيناي بعينيه، أدام ‘لي النظر، ولسانه المتدلي من فمه المفتوح يتحرك، وأنيابه تلتمع حادة مخيفة، أحسست فيها تنغرز في ساعدي المكشوف، انتابتني رعدة، فأنزلت كم القميص، وغطيت ساعدي.

لقد رأيت كلاباً كثيرة، وليست هذه أول مرة أرى فيها كلباً، في الشتاء الماضي أوى كلب إلى الحي الذي فيه محل معلمي، أخذ الأولاد يقذفونه بالحجارة، ربطوه بحبل وبدؤوا يسحبونه ولكن معلمي أشفق عليه، وأدخله إلى الدكان، أنا ومعلمي غسلناه بالماء والصابون، وقدمنا له الطعام، بقي في الدكان أكثر من عشرة أيام، كنت آتي كل يوم صباحاً كعادتي قبل معلمي، فأفتح الدكان، فأجده بانتظاري، يهر لي، ويحوم حولي، فاقدم له الطعام، حدثت أمي عنه، فحذرتني منه، وحذرتني ألا أقترب منه، وألا ألمس طعامه بيدي، حتى أنها عزمت على وضعي عند معلم آخر، ولكن معلمي أعطى الكلب لبستاني، ربطه الرجل من عنقه ومضى به، لست أدري لماذا تخلى عنه معلمي بهذه السهولة، حزنت لفقده، وقد سرت أمي لذهابه، واطمأنت.

كان كلباً متشرداً، مثل كثير من الكلاب التي أراها كل يوم في الأزقة والحارات، ليس لها ما تحامي عنه،

لقد عطفت عليه، وتمنيت أن يبقى معي في المحل، أما هذا فمختلف، لست أدري لماذا أخافه، أنا لا أخافه، ولكني أحس بالمفاجأة والدهشة.

حررت الغسالة من ارتباطها بأنبوب الماء، أنا بحاجة إلى مفك، وعلي أن آتي به من الصندوق، استدرت، وأنا ما أزال في موضعي، نظرت إلى الكلب، بادلني النظرة نفسها، ولسانه ما زال يتدلى من فمه المفتوح ذي الأنياب الحادة، نظرت إلى جلده الأحمر الداكن، الضارب إلى السواد، مثل لون الشحم الأسود، أحسست به أملس ناعماً، قلت:" لا شك أنه جميل"، ثم قلت:" لا شك أنه غير مؤذ"، ثم قلت:" لا شك أنه لطيف"، كنت أحاول إقناع نفسي، للاقتراب من صندوق العدة، ولكن يبدو أنني لم أقتنع، ولا بد من العمل، لا بدمن إحضار المفك، اقتربت من الصندوق قليلاً، نظرت إلى حيث كانت واقفة تسند ظهرها إلى المجلى، حاولت استرجاع صورتها، تخيلت شعرها، ولكني لم أفلح، نظرت غليه كان ما يزال ينظر إلي، حاولت أن أفهم معنى لنظراته، فلم أستطع، دنوت، وصلت إلى الصندوق، مددت يدي بهدوء، وأنا ممسك بالمفتاح، ويلتفت برأسه، يفلت المفتاح من يدي، وأقفز على أقصى المطبخ، ظهري إلى الجدار، يقفز الكلب إلي، نباحه الراعب يصعقني، وتظهر السيدة في الباب منادية:

- ميشو، ميشو

ويتابع نباحه، متحدياً، وأنا ملتصق بالجدار، وقد سدت علي كل المنافذ، وتعطلت جميع حواسي.

وتناديه ثانية، ثم تأتي إليه، فيتركني، ويلتفت إليها، وتجثو على ركبتيها أمامه، فيضع قائمتيه على كتفيها، ويغطي صدرها بجسمه، وهي تضمه إليها بكلتا يديها، فيمضي فيلعق بلسانه وجنتيها وزاوية فمها وجيدها، وهي تقبل رأسه وتمسح رأسه، فيهدأ، فتلتفت إلي، لتقول لي متهمة بازدراء، وقد تغيرت سحنتها، وفقدت بعض جمالها:

- يبدو أنك أثرته؟!
- أنا؟! لا، لا، أبداً.
- وإذن فلماذا نبح؟!
- أردت أن أضع المفتاح في الصندوق، فأفلت من يدي، ووقع على الأرض.
- أنت أجفلته، ولعلك لا تعرف أن عملك هذا قد يمرضه أسبوعاً كاملاً، أنت لا تعرف كم هو لطيف وناعم.

وتستمر في مسح رأسه الكلب، وتقبيله، ثم تقول موجهة الكلام إليه:

- لا تخف يا ميشو، سأحضر لك الطبيب مساء.

أنا في مكاني، مسمر، أرى جيدها وخديها، وأكاد أرى سائلاً لزجاً من لسانه ملتصقاً على الوجه والعنق

وفي زاوية الفم، أحس أني قطعة من خشب متيبس، من بقايا زورق محطم، لم يلمسه موج البحر منذ ألف عام.

ليت امرأة أخرى غيرك تفعل ذلك، ما أنت؟! فلا، أكاد لا أصدق، لا، لست أنت، ليت أني في الحلم.

ويتسرب إلي رنين جرس الباب، فأحس بالارتياح، وتمضي مولية ظهرها إلي، من غير أن تقول شيئاً، وهي تدعو ميشو إلى الخروج أمامها، وكأنها تخشى عليه من أن يبقى معي.

وأمضي نحو المجلى، أحس بعروقي ومفاصلي تطقطق وأنا أمشي، كأني هيكل عظمي يتحرك، أحس أني أكاد أتعثر وأسقط، كأنني أتعلم المشي أول مرة، أفتح صنبور الماء، أمد يدي إلى الماء، أملأ فمي، أتمضمض، أبصق الماء، أملأ يدي ثانية وأدني منها فمي كي أشرب، وعندما يبلل الماء شفتي أبتعد عنه، ولا أشرب، وأغلق الصنبور.

ويدخل معلمي، تتبعه السيدة، ويدخل الكلب في إثرهما، ينظر معلمي إلى الغسالة، ثم ينظر إلي، أحس بالخزي والخجل، يسألني:

- ماذا فعلت يا أمجد؟!

أحاول أن أجيب فلا أستطيع، حنجرتي متيبسة.

- هل فككت الغسالة؟

- لا.

ويقدح شرر حارق في خدي، يعقبه توهج مشتعل، تمتلأ عيناي بالدموع، أنظر إلى السيدة، أراها تضم الكلب إليها، وهي ترمقني بنظرة لا معنى لها، أحبس دموعي أغص، أكاد أختنق، أحس بدموعي تنزل في حلقي.

- لماذا لم تفك الغسالة؟!

- جئت ماشياً، فتأخرت.

- جئت ماشياً، يا سافل، حتى توفر ربع ليرة؟! سأحسم من أجرتك هذا الأسبوع خمس ليرات، هيا، ابدأ معي العمل.

ويمضي إلى الغسالة، أتبعه، أجر إلى قربه صندوق العدة، أناوله المفك، أسترده منه، أعطيه الكماشة، ثم أناوله المفتاح 10، أعاونه على سحب الملف، أناوله جهاز الجس الكهربائي، يتتبع بالقطبين مواضع الاتصال، أنظر إلى المؤشر، ثمة انقطاع في موضع ما، لعله سلك منصهر، هذا ما خمنته من قبل، يمكنني أن أقوم بالعمل وحدي، ولكنني لست معلماً.

- هات السلك، ثم سخن مكواة اللحام.

ناولته السلك، ومضيت إلى الموقد، أشعلته من غير استئذان، ووقفت أنتظر توهج المكواة. أحس بها تنظر إلى خدي، لا شك أن آثار الصفعة واضحة، وهي تتأملها بارتياح، ألتفت إليها، ترمقني بنظرة لا أفهم لها معنى، أنت تحضرين الطبيب للكلب إلى المنزل، وأمي تمرض

ولا أستطيع حملها إلى الطبيب، ولكن على الرغم من ذلك، لست أدري ما الذي يجذبني إليك.

- أمجد، ضع الشحم حول المحور، إلى أن أصل السلك.

تناولت علبة الشحم من الصندوق، غمست أصابعي في الشحم الأحمر الداكن، الضارب إلى السواد، شعرت بميوعة الشحم وليونته، ترسخت بين أصابعي لزوجة رطبة، تغلغلت عبر مسامي، وأنا أمسح المحور، انتبهت إليها، وقد جثت على ركبتيها، واحتضنت الكلب، وهي ترمقني، تتابع عملي، نفحني شذاها العبق، وهي ترد شعرها إلى وراء، بعد قليل سيفرغ معلمي، يغسل يديه بالماء والصابون في حوض المجلى، وأنا أمسح يدي بخرقة، وقد أولانا ظهره، أحس ثانية أنني وهي وحدنا معاً، ترسل إلي نظرة ناعمة، ثم تقول لمعلمي:

- أرجو أن تسامح أمجد فهو ولد طيب، وأنا سبب تأخيره.

يلتفت إليها مدهوشاً، ليسألها:

- وكيف كان ذلك؟

وتجيبه وهي تفتح حقيبة يد صغيرة:

- تركته وحده مع الكلب، فأفزعه، فتأخر عن عمله، ولذلك أرجوك أن تسامحه.

ثم تمد يدها إلي بقطعة نقد ورقية، أنظر إليها، فإذا هي خمس وعشرون ليرة، فأتراجع، وأعتذر عن أخذها،

ولكنها تدنو مني وتضعها في جيبي، وحين تفعل ذلك أحس بقربها مني، وأستشعر دفئها اللذيذ.

وعند الباب يخرج معلمي، وأنا وراءه أحمل الصندوق، أتلكأ قليلاً، أرسل إليها نظرة، أتلكأ، فتمسح بيدها البضة شعري، ثم ترسلها إلى خدي، إلى موضع الصفعة، ويدي في جيبي قابضة على الخمس والعشرين ليرة.

- هل فرغت من وضع الشحم على المحور؟

- نعم.

معلمي يعيد الملف إلى موضعه، يشده بإحكام، وأنا أساعده على ذلك، ثم يقول لي:

- هيا يا أمجد، أعد وصل الغسالة بأنبوب الماء.

يتناول معلمي خرقة من الصندوق، يمسح بها يديه، يلتفت إليها كانت ما تزال جاثية، تحتضن الكلب، يسألها:

- أراك مولعة بالكلب؟!

- أنت تعلم أن زوجي دائم الأسفار، بسبب عمله، وقد أحضره لي من ألمانية، لأتسلى معه.

ثم نهضت، وكان معلمي قد فرغ من مسح يديه، فرمى الخرقة في الصندوق، فلفتت حركة يده نظر الكلب، فاقترب من الخرقة، شمها، ثم قعد إلى جانب الصندوق.

وكانت تتابع كلامها قائلة:

- إنه لطيف جداً، أمه ذئبة، وقد تلقى تربية خاصة، ولكن ليتك تعلم أن هذا الولد

كنت قد فرغت للتو من شد موضع الاتصال بين الغسالة والأنبوب بالمفك 18، وهو ما يزال بيدي، وقد تلوث بالشحم، فوقفت أترقب ما ستقول، سألها معلمي:

- ماذا فعل؟

ثم التفت إلي وصاح بي:

- هيا، ضع الشريط في المأخذ.

تناولت الشريط من الأرض، اتجهت نحو المأخذ، مولياً ظهري إلى معلمي والسيدة والكلب، وضعت الشريط في المأخذ، كانت تقول:

- تركت هذا الكلب اللطيف معه كي يؤنسه في أثناء عمله، ولكنه استفزه، فنبحه، ولذلك فزع، وهذا هو السبب الحقيقي لتأخره عن عمله.

والتفت معلمي إلي وصاح بي:

- يا سافل، وتكذب أيضاً؟! هيا رتب الصندوق.

وضعت المفتاح بين أسناني، ضغطت عليه، اصطكت أسناني بصلادة الحديد، وتسربت برودته إلى شفتي، ثم أحسست بطعم الشحم الأسود في فمي، كنت أحس دائماً للشحم طعماً كريهاً، أتقزز منه، ولكني شعرت هذه المرة أن الطعم مختلف.

دنوت من الصندوق، سحبته قليلاً، أبعدته عن الكلب، كانت السيدة في أثناء ذلك تقول لمعلمي:

- على كل حال أخذ جزاءه حين صفعته، في البدء أشفقت عليه، ولكنني بعد ذلك أيقنت أنه يستحق ذلك.

أغلقت الصندوق، ووقفت أحمله بيدي.

أحسست بالشحم الأسود يتسرب إلى حلقي، وأنا أراقبها وهي تمد يدها إلى معلمي بقطعتين نقديتين، حدقت فيهما، فإذا كل واحدة مئة ليرة، ثم مدت يدها إليه بقطعة ثالثة، أدركت على الفور أنها عشر ليرات، ناولته إياها، وهي تقول له:

- تقتضي الأصول أن أقدم لهذا الولد عطاء، ولكنه لا يستحق، ولذلك سأقدم العطاء إليك، لتعطيه إياه، ولن أقدمه إليه بنفسي.

تنبهت إلى أن المفتاح كان ما يزال بين فكي، أضغط عليه بأسناني، فتناولته بيدي، أحكمت عليه قبضتي، وقلت:

- لا أريد شيئاً.

ثم خطوت نحو الباب، وخرجت، ومن غير توقفت عبرت الممر، ثم صرت خارج الدار، هممت بالهبوط على الدرج، ولكني تريثت، ضغطت على زر المصعد، ووقفت أنتظر وصوله.

حين مررت بها لم ألتفت، ولكنني لمحت عينيها العسليتين وشعرها الخرنوبي، أما الكلب فقد تأكدت أني لم ألمح منه شيئاً، فقد كان ورائي، لو أرسلني معلمي إليها مرة ثانية لما ذهبت، بل لو أرسلني لإصلاح أي غسالة في هذا الحي لما ذهبت.

فتحت صندوق العدة، ألقيت فيه المفتاح بقوة، أحسست أنه أصدر دوياً، لا شك في أن الكلب في الداخل قد سمعه، ثم سمعت صوت معلمي قادماً، قدرت أنها وراءه، تخطر في حذائها الأرنبي، والكلب يمشي وراءها، وددت أن ألتفت لأرى وجهها آخر مرة، ولكني سمعت صوتها وهي في الباب تقول له:

- إذا حدث أي خلل، فسوف أتصل بك، ولكن أرجو أن تحضر بنفسك، وألا ترسل الولد.

أبقيت ظهري إليها، ولم ألتفت، كان المصعد قد وصل، انفتح الباب، ودخل معلمي، دخلت في إثره، أبقيت ظهري إلى الباب.

ضغط معلمي على الزر، وأخذ المصعد يهبط.

نظر معلمي إلي، فقلت له على الفور:

- لا أريد العطاء.

فقال:

- سأعطيه لأمك.

- سأطلب منها ألا تأخذه منك.

إنها ليست كأمي، وأنا لن أذهب معها إلى القصر على الشاطئ، ولن أنزل في بحر تسبح هي فيه، ولو كان ذلك تمثيلاً في فيلم، حتى لو دفع لي المخرج ألف ليرة.

الآن عرفت لماذا لا تحب أمي الكلاب، ولكني إذا عثرت على كلب متشرد فسوف ألتقطه، وسوف أربيه تربية خاصة أيضاً، وسأجعل أمي تحبه، إن أمي ليست كتلك السيدة، ولن يكون الكلب الذي سأربيه مثل ذلك الكلب.

حين وصلنا إلى الشارع قال معلمي:

- خذ صندوق العدة إلى المحل، أنا ذاهب إلى البيت لتناول الغداء، سأرجع بعد العصر.

لم أجب بشيء، مضيت وحدي، أحمل صندوق العدة بيد، ويدي الأخرى في جيبي، أتحسس ربع الليرة ونصف الليرة، وقد عزمت أن أمضي ماشياً، وفي الطريق سأقف أمام بائع المرطبات، أشرب كازوزة، يمتزج طعمها اللذيذ بما في فمي من طعم الشحم الأسود.

ذات المعطف الوردي

-1 -

في الواحدة إلا عشر دقائق، غادرت مبنى المؤسسة الاستهلاكية، راجعت حساباتها، أقفلت أدراجها، وقعت على دفتر الدوام، وخرجت.

وعلى الرصيف، في شارع المحطة، أخذت ندف الثلج المنهمر تغمر شعرها الخرنوبي، وتحط كالعصافير على وجهها.

شدت حول جسمها معطفها الوردي، رفعت أطراف الياقة إلى فوق، خبأت عنقها وأذنيها، وضعت يديها في جيبي المعطف، وأسرعت الخطا.

ندف الثلج المنهمر تشتد كثافة، والريح العاصفة تتطاير بها نثائر نثائر، فتنسج غلالة بيضاء شفافة، تبدو من خلالها السيارات غادية آيبة، كأنها تسبح في حلم.

شعرت بدفء شديد، أحست بالتعرق، وقلبها يدق بسرعة، أخذت تسير ببطء، والثلج فوقها ينهمر، والريح الباردة تلسع أنفها ووجنتيها.

قبل الإشارة الضوئية، مرت ببائع شطائر، نفحها عبق أطعمة ساخنة، وبهارات شهية، يمازجها نغم معتق، سارت بضع خطوات، ثم رجعت.

غمرها في داخل المحل عبق لذيذ، وأدفأتها سخونة حالمة، واستسلمت لخدر الأغنية، واللحن الفاغم.

وتتجه نحو البائع بالطلب:

- شطيرتين من الفلافل.
ويسألها:
- ممتاز أم عادي؟
تتردد قليلاً، ثم تسأل:
- والفارق؟
- الشطيرة العادية بخمس، والممتازة بست ليرات.
- ممتازة.
أصابع البائع تفتت بمهارة أقراص الفلافل الساخنة، تنثر فوقها البقدونس المفروم ناعماً، تضيف إليها قطعاً صغيرة من الحامض، تصب من رائب اللبن، ثم تطوي الشطيرة بخفة، تلفها بورق شفاف.
الأغنية تسري خدراً لذيذاً، ترتعش له أواصلها في انتشاء.
تحمل الشطيرتين، تحس بهما دافئتين، وتخرج.
الثلج ينهمر، من حولها، والريح تسعفها، تتقلص أطراف أصابعها، يتجمد أنفها، وتتصلب وجنتاها، ولكن في الداخل يتوهج دفء، يمازجه نغم متألق، تحس به في وقع خطواتها على الرصيف، وهي تغذ الخطا نحو الحديقة.
عند الإشارة الضوئية وقفت تنتظر، لتعبر الشارع.
- تعالي، اطلعي معي.
وتلتفت مشيحة بوجهها عن وجه مستدير، فوق جسم بدين، لفتى دون الثامنة عشرة، يطل عليها من نافذة

سيارة فخمة تقف أمامها، ومن داخل السيارة يقفز إليها الإيقاع الغربي الصاخب، يفترسها، ينهش النغم المترقرق في الأعماق.

وتنطلق السيارة خائبة.

وتجتاز هي الشارع، تحث الخطا.

على يمينها سور الحديقة العامة، وأشجار الصنوبر تعلو خضراء متألقة في غمار الثلج، عصافير صغيرة تتقافز على السور، تنقر في الثلج، ثم تطير إلى أشجار الصنوبر تحتمي بها، تحط على أغصانها وهي تزقزق.

الرصيف الآخر تطل عليه النوافذ الزجاجية للمقاصف الراقية، "البستان" و"السعد" و"الاستراحة"، الزجاج مغبش برطوبة توحي بالدفء في الداخل، وراء الزجاج موائد حولها مقاعد وثيرة، خالية، لا أحد في الداخل، حتى ذلك الشخص ليس واحداً من الرواد، وإنما هو النادل.

قريباً من باب الحديقة، وتجاه مقصف "الاستراحة"، تقف سيارة أكثر فخامة، لا تعرف نوعها، وكهل شائخ قبل الأوان، يزيل الثلج عن السيارة، ويمسح زجاجها، والثلج ينهمر فوقه، وراء الزجاج المغبش، في المقصف، يظهر رجل، صقيل الشعر، وراء إحدى الموائد، أمامه زجاجة سوداء، وفي يده سيكار غليظ.

عند باب الحديقة تنظر إلى ساعة يدها، بضع دقائق مرت، بعد الواحدة، والثلج ينهمر فوقها، وأمامها يمتد

الدرج الأصفر الهابط كالحلم إلى الحديقة، حيث واحات الخضرة المغطاة بالثلج، وأدغال الصنوبر الكثيفة، وبرك الماء المتجمد.

تلتفت إلى الشارع الهابط نحو الحديقة، من الطرف الشرقي، حيث المصرف التجاري، ترى من بعيد إشارة المرور، الضوء فيها أحمر، ليس في الشارع غير بضع سيارات قليلة، أما على الرصيف، فليس ثمة أحد.

تهبط على درج الحديقة، تحت الثلج المنهمر ندفاً، وفي الأعماق ينضفر النغم والدفء.

-2 -

في كوخ خشبي صغير، عند أسفل الدرج، في باب الحديقة الرئيسي، ثلاثة رجال، التفوا حول مدفأة كهربائية صغيرة، يرتشفون الشاي، مستمتعين بالدفء، وهم يطلون من باب الكوخ، على الفسحة الممتدة أمامهم، ويرون الثلج ينهمر على الحديقة.

قال أحدهم، وهو مصور كهل:

- ما رأيكم، هل ألتقط صورة من هنا لتلك الفتاة؟

وأشار من داخل الكوخ إلى فتاة مكتومة على مقعد خشبي، تحت شجرة صنوبر كبيرة، تلتف بمعطف وردي، وقد رفعت ياقته حول عنقها.

ويرد آخر، وهو حارس شاب:

- التقط لها ألف صورة إذا شئت، ولكن لا أحد منا سيدفع لك، اليوم لن ترزق بقرش واحد.

ويعلق الرجل الثالث، وهو حارس عجوز:

- لا بد أن يمارس اليوم أبو جميل مهنته، ولو من غير مقابل.

ويرد أبو جميل، المصور، وهو يحتسي الشاي:

- غداً يغطي الثلج الحديقة، ويأتي الناس، ليلعبوا فوق الثلج، وعندئذ ألتقط مئات الصور، وأعوض عن هذا اليوم.

الحارس الشاب يضيف:

- أنا أعرف، هذا يوم نحس، كأن الحديقة سوف تسرق، ولا بد من عشرة حراس، أنا بعد ساعة سوف أرجع إلى البيت، لن أبقى حتى نهاية الدوام المسائي.

ويسأله المصور باستفزاز:

- وإذا مر المدير قبل نهاية الدوام بربع ساعة، ليتفقد العاملين والحراس؟!

ويرد الشاب بنزق:

- المدير، وكل المديرين، اليوم في إجازة، سهروا أمس حتى الفجر، ما في أحد غيرنا نحن في الحديقة.

ويعلق المصور، مخاطباً الحارس الشاب:

- يا حسن، لا تنس الفتاة هناك، فهي في الحديقة معنا.

الحارس الشاب يستهويه الكلام على الفتاة:

- أنا أقترح دعوتها لشرب الشاي.

ويتكلم المصور:

- ما قصدك يا حسن، أنا أعرف ماذا تعني بهذا الاقتراح.

ويعلق العجوز:

- لا أحد يقترح أي شيء، بعد قليل يأتي خطيبها، أنا أعرفها، كل يوم أو يومين، تأتي إلى هنا، تنتظره، أو ينتظرها.

ويتكلم المصور:

- لا

ليس خطيبها، أنا اقتربت منهما، ما رأيت في أصابعهما أي خاتم، ما هو خطيبها، هو عشيقها.

ويضيف حسن:

- لا هو عشيقها، ولا هو خطيبها، هو قواد.

ويسأل العجوز بغضب:

- وكيف عرفت؟!

ويرد حسن الشاب:

- ولا مرة أمسك يدها، أو أحاط خصرها بذراعيه، أو قبلها، من شهر أنا أراقبه وأراقبها، غالباً ما يقعدان معاً صامتين.

ويتكلم المصور ساخراً:

- هذا حب روحاني.

ويعلق العجوز بجد:

- لا تجوز إساءة الظن بالناس، ربما ما زالا في مرحلة التعارف.

تمر هنيهة صمت، تظهر في أثنائها على الحارس ملامح الضجر، يجرع بقية الشاي من كأسه دفعة واحدة، ثم ينهض، وهو يقول:

- أنا ذاهب إلى الإدارة للإخبار عنها، وقد أدعو الشرطة للحضور لإلقاء القبض عليها، ولا يجوز تحويل الحديقة إلى مبغى.

ويضع كأس الشاي الفارغة، ثم يخرج، تاركاً الحارس العجوز والمصور حائرين مرتبكين.

ويمضي تحت الثلج المنهمر في كثافة شديدة.

-3 -

الساعة تدنو من الثانية، وهي ما تزال في موضعها، وإلى جانبها على المقعد، شطيرتا الفلافل.

الثلج يزداد كثافة، والريح تزداد عسفاً.

شبح رجل من بعيد يسير نحوها، يجتازها فسحة من المرج الأخضر، يدوس فوق المرج المغطى بطبقة ناعمة من ندف الثلج، خطاه بطيئة، متعثرة، ليس على جسمه سوى قميص واحد، نحيل جداً، معروق، كث اللحية، يشير بيديه إشارات كثيرة، ليست ذات معنى، كمن يفكر، أو يدفع نقوداً أو يناقش، أو يخطب، صوته يعلو، ويهبط، فيه بحة غريبة.

هم قالوا ذلك، ولكن أنا لا أصدق، وهذه هي أنت، لا أريد أي شيء، اتركي النقود لك، أنا أعطيتك قلبي، وأنت تزوجت ذلك التاجر، هم قالوا ذلك لا، لا أريد أي شيء،

حتى الطعام لا أريده، كلي أنت، لا تخافي، لن أنتقم، أنا ما أزال أحبك، لا أصدق، هم كذابون، هذه هي أنت أمامي، ولكن لا، لا، أنت لست هي، لا تصدقيهم، هم كذابون، هي لم تخني، أنا رأيتها، كل يوم أراها، كل يوم تأتي إلى الحديقة، أراها مرة هنا، ومرة هناك، أحياناً أرى معها أولاداً صغاراً، أنا أعرف هم أولادي، هي ما تزال تحبني، هي هناك، انظري إليها، لا تصدقي كلامهم، هم كذابون...

ويمد يده إلى الشجرة التي تظللها، يقتطع منها غصناً صغيراً، ينفض عنه الثلج، ويأخذ في قضم أوراقه الصنوبرية الرفيعة، ويمضي عنها بعيداً، وهو ما يزال يشير بيديه، ويتكلم.

-4 -

ولدان مشردان، يتراكضان تحت أشجار الصنوبر، يكومان كرات من الثلج، يتراشقان بها.

الولدان يتجهان إليها، بخطا بطيئة.

أحدهما يضع سيكارة في فمه، وحين يصل إليها، يقف قبالتها، ويقول لها:

- أشعلي لي سيكارتي.

تجابهه بنظرة قاسية، وهي تشير إليه بيدها حازمة أن اذهب.

وينفجر في إبهام قدمها اليمنى ألم صاعق، والولدان يفران راكضين بعيداً عنها.

أحدهما يسأل زميله:

- لماذا دست على قدمها؟ كان من الأفضل أن تخطف منها قبلة.

ويرد عليه الآخر:

- أنت لا تعرف معنى أن يدوس رجل على قدم امرأة.

- وماذا يعني؟!

- لا أعرف، اسأل أمك.

ويتقاذفان الثلج، وهما يتبادلان الشتائم.

تخلع حذاءها، أصابع قدمها حمراء متلاصقة متورمة، والدم ينفر من طرف الظفر، في الإبهام.

تخرج منديلاً ورقياً من حقيبتها الصغيرة، تلف بها الإبهام.

-5 -

يوم مزعج، من الصباح وأنا متكدر، ليتني لم أعدها باللقاء يوم السبت، حتى الهاتف في البنك تعطل، لم أتمكن من الاتصال بها، ولم أتوقع ألا يسمح لي المدير بإجازة لساعة واحدة عند نهاية الدوام، كما لم أتوقع كثرة المعاملات في هذا اليوم، كيف خرج كل أولئك الناس من بيوتهم، حتى العجائز، أنا الشاب تمنيت ألا أخرج، درجة الحرارة دون معدلها السنوي، بعشر درجات، لا أظن أنها ما تزال في الحديقة تنتظر، ماذا أفعل؟! أسوأ الأيام يوم السبت، بداية الأسبوع، لا أعرف كيف تفيض عند الناس

مثل تلك المبالغ، كيف يحصلون عليها؟! أصابعي تشنجت وأنا أعد، خذ هذه عشرة آلاف، وهذه مئة، وهذه خمسمئة، ربما عددت هذا اليوم ملياراً، لا أعرف، وأمين الصندوق يأخذ ويعد، ويناولني ويقول لي عد، ونضع الأوراق في جهاز العد الالكتروني، ويخرج الرقم على اللوحة، ولكن لا بد من أن تعد أيضاً، وأمامك رتل من المنتظرين، سحقاً لهم ولنقودهم، منذ ثلاث سنوات أودعت في البنك خمسمئة ليرة، فتحت حساباً باسمي، وأنا الموظف في البنك، أنا العداد فيه، ثلاث سنوات، لم أضف فيها إلى رصيدي سوى مئتي ليرة، وأناس يفتحون حساباتهم بعشرات الألوف، وكل يوم يضيفون إلى رصيدهم، ماذا أفعل؟! هل أسرق، وماذا هي بإمكانها أن تفعل؟! وكل شيء محسوب عليها مسجل، حتى لو تزوجنا وعشنا معاً، ماذا سيفعل راتبي وراتبها، ولو أنجبنا عشرة أولاد، ولو عمل كل ولد من اليوم الأول لولادته، براتب مثلي ومثل راتبها، لما أمكننا أن ننهض بأعباء البيت، خالتي كانت على حق حين رفضت تزويجي ابنتها، تعرفني موظفاً لا يحمل سوى شهادة الكفاءة، ويعمل عداداً في البنك، هي على حق، غضبت أول الأمر، ولعنت وشتمت، ولكنني صحوت على الواقع، وعرفت الحقيقة، لا مستقبل، لا أمل، لا حياة، وتلك البائسة هناك تنتظر في الحديقة وحدها، وأنا هنا، أعدو على الرصيف، أجتاز الشارع ولا أعرف كيف أجتازه،

تراها ما تزال هناك تنتظر؟! أم لعلها ذهبت؟! المسافة بيني وبينها لا تزيد على خمسمئة متر، شارع أو شارعين أقطعهما، وأصير عند باب الحديقة، ولكن مع ذلك لا أعرف لماذا أحس الطريق طويلة، لماذا لا تكون عندي سيارة، أضعها فيها وأطير بها إلى الريف، إلى القرى، إلى الجبل، نقعد ساعات وساعات في داخل السيارة، ننعم بالدفء، هناك على الطرف الآخر من الشارع مكتب لبيع السيارات، اتصلت به في الهاتف وسألته عن حاجته إلى مدقق حسابات، فاعتذر، اتصلت به مرة ثانية، بعد مدة، وسألته عن حاجته إلى عامل مكتب، يعمل بعد الظهر، فاعتذر أيضاً، ماذا أفعل؟! هل ، وأمسح بها زجاج السيارات الواقفة، لآخذ من سائق صدقة أو إحساناً، على حين يشتمني عشرات السائقين، لا أعرف ماذا أفعل؟! هل أراك ما زلت في انتظاري؟! لا، لا، سندخل إلى مقصف الاستراحة، سنأكل ونشرب ونحس بالدفء، سأدفع راتبي كله، هذا هو مدخل الحديقة، وهذه هي هناك، في الفسحة عند أسفل الدرج، تحت الثلج، بمعطفها الوردي، وليس بيننا سوى الدرج، ليتني أقفز إليها، أو أحلق فوق الدرج، هل أحاول، طالما رأيت نفسي في الحلم وأنا أحلق فوق الأدراج، أقفز فوقها، أطير، آتي بحركة، بدفعة من قدمي، وأنا في الفضاء، فأحلق ثانية، وأتجاوز أدراجاً وأدراجاً، والآن، هل أحاول؟! وها أنت ذي أمامي، ولكن، ولكن، يا لتعاستي، ويا لتعاستك؟!

-6 -

أسرعت إليه، وهو يهبط إليها على الدرج.

قال لها:

- تأخرت كثيراً، اعذريني، المدير لم يمنحني إجازة.

لم تعلق، فأضاف بلهجة مختلفة:

- تعالي لنقعد في مقصف الاستراحة.

ردت بحزم:

- لم أنتظرك لتدعوني إلى واحد من تلك المقاصف.

- ولكن.

- إذا كنت تخاف من البرد، فاذهب، أنا سأبقى هنا حتى الرابعة.

وقف قبالتها، وقال بحدة:

- لا، لن أذهب، ولن تبقي، سنذهب معاً، هذا من حقنا، الناس الذين هنا ليسوا أفضل منا، من حقي ومن حقك أن نقعد هناك معاً، من حقك أن يكون على كتفيك معطف أبيض بالفرو، من حقي.

قاطعته:

- اسمع، أنا ليس عندي سوى هذا المعطف الوردي، اشتريته من سوق الثياب المستعملة، وأنا لا أفكر في شراء غيره.

قال:

- آسف، لم أكن أقصد.

تابعت:

- لا تتأسف، ولا تعتذر، ولا تحلم، ولكن فكر قبل كل شيء.

*

سارا معاً، الثلج ينهمر فوقهما ندفاً، السماء بيضاء، الفضاء أبيض، الأرض بيضاء، الشجر الأخضر يكتسي بياضاً نقياً.

تكلمت:

- أنا واثقة بنفسي وبك، وأنا متأكدة من أنك لن تعد كلامي خطأ أو جنوناً.

أجابها:

- أنت على حق، كان ذلك خطأ مني.

وصمت، هنيهة، ثم أضاف:

- أنت تعلمين في مؤسسة استهلاكية، لا يقصدها إلا أبناء الشعب من الفقراء مثلي ومثلك، أما أنا فأعمل في بنك، واتصالي دائماً بأصحاب... لا أعرف ماذا أسميهم، ولذلك.

قاطعته:

- ولكن يجب أن تنسى أبداً أنك فقير، ولست واحداً منهم، واتصالك بهم ليس سوى عمل وظيفي.

*

وهما يتناولان معاً شطيرتي الفلافل تحت شجرة صنوبر كبيرة، فتحت حقيبة يدها الصغيرة، استلت منها ورقة مطوية، وقدمتها إليه، فسألها:

- ماهذه؟

- طلب للعمل في المؤسسة.

- لا، تعمل في المؤسسة مساء، من الرابعة إلى الثامنة.

- وكم سيدفعون لي؟

توقفت عن مضغ اللقمة، نظرت إليه طويلاً، ثم قالت:

- لا تسأل كم سيعطونك، بل اسأل في أي قسم من أقسام البيع ستعمل، هل ستكون معي في القسم نفسه، أم في قسم آخر؟!

أطرق قليلاً، ثم قال:

- وإذا كنا معاً في قسم واحد، فماذا بإمكاننا أن نفعل؟ هل سنغير العالم؟

- قبل أن تفكر في تغيير العالم، يجب أن نفكر في تغيير أنفسنا، أو تغيير موقفنا نحن من العالم، هذا القلق والضياع والتمزق لا يجدي شيئاً.

سألها بقلق:

- ماذا يمكننا أن نفعل؟

أجابت، وهي تمضغ اللقمة بهدوء:

- ما يزال أمامنا الوقت الكافي للتحضير لامتحان الشهادة الثانوية، لدي صديقة مدرسة، سأطلب منها أن تساعدنا نحن الاثنين على التحضير للامتحان.

مسح فمه بالورقة التي كانت الشطيرة ملفوفة بها، ثم قال:

- لن تفيدنا الشهادة في شيء، لن تغير وضعنا المادي ولا الوظيفي.

ابتلعت اللقمة الأخيرة، مسحت زاوية فمها، ثم قالت:

- الشهادة هي البداية، وليست النهاية، وتبقى الدراسة بالنسبة إلينا نحن الفقراء هي طريق الخلاص.

بعد هنيهة صمت، قال لها:

- لا أحب طول القعود، ما رأيك في أن نتمشى تحت أشجار الصنوبر؟!

نهضت، والألم في اصبع قدمها ينفجر عند كل خطوة، وهي تتحامل على نفسها، محاولة عدم إشعاره بشيء.

*

في الممر الذي يسيران فيه، تحت أشجار الصنوبر، فتى وفتاة مثلهما، يسيران معاً.

يد بيد، وخطوة وفق خطوة، معاً معاً.

والثلج يزداد كثافة، والريح تعصف.

وهما يمران بهما، سمعا الفتى وهو يقول للفتاة:

- انتظري، لست وحدي من لا يستطيع دعوة صديقته إلى المقصف، هناك كثيرون مثلنا.

ويصمت، فتضيف الفتاة:

بالتأكيد، ونحن الأكثر والأصدق والأوفى.

*

الريح تزداد عصفاً، والثلج ما يزال ينهمر، ليمنح الكون لون البياض النقي.

وعلى الأغصان عصافير دافئة، تنقر في الثلج، وتزقزق.

البحث عن الحب

-1-

لا تعرف كيف وجدت نفسك محشوراً في الباص، انتظرت في الموقف نصف ساعة، ثلاثة باصات مرت، وأنت تنتظر، وأخيراً وجدت نفسك مندفعاً مع المندفعين، الشد والدفع والتزاحم دفعك جوفه مع المتدافعين.

الأجساد متراصة، بعضها يلتصق ببعض، وحين يقف الباص في أحد المواقف لينزل منه بعض الركاب، يندفع إليه أضعاف من ينزل منه، ويزداد الاختناق، وتتصبب الأجساد عرقاً، ثم ينطلق، فيتسرب من النوافذ هواء حار لافح، يحمل إلى الأنوف روائح الأجساد، فيزكمها.

ليس ثمة مفر، إما أن تحشر نفسك في الباص وإما أن تنتظر ساعة أو ساعتين، حتى تحمل الباصات كل الموظفين، إنه وقت انصرافهم، والانتظار مستحيل، الرصيف يكاد يشتعل، والواقية التي في الموقف لا يمكنها أن تغطي سوى ربع المنتظرين، والآخرون يظلون تحت شمس تموز اللاهبة، والأرض تحول أحذيته إلى جمر متقد.

سيارات الأجرة لا يمكن أن تفكر فيها، والسيارات الأخرى التفكير فيها يميت ويشل.

كتل الأجساد يتحرك بها الباص في الحر القاتل، وهي مستسلمة، معلقة بالمقابض، مستند بعضها إلى

بعض، قائمة على أحذية ملتصقة بأرض معدنية ملتهبة، ترتج ارتجاجاً، ولا تتحرك، تنقذف إلى الخارج، فتطمئن إلى وصولها، وتندفع مزاحمة إلى الداخل، فتطمئن أيضاً، لأنها وجدت ما يوصلها، والسائق ينعطف حيناً فجأة، فينام فوق الكتل فوق بعض، ويتوقف حيناً آخر فجأة، أو ينطلق بحدة، فتنخلع القلوب، والصمت ما يزال يخيم، ولا أحد ينبس أو يهمس.

وأخيراً يقترب الخلاص، يجب أن تهيئ نفسك للنزول، وأمامك سد من الأجساد المتراصة.

-إذا سمحت، من فضلك، أرجوك.

ولا جدوى.

- ابتعد من الطريق، افسح لنا مجالاً.

ولا جدوى.

لابد أن تغرس كتفك في الأكتاف المتلاصقة، وأن تضغط، وأن تمد قدمك بين الأقدام، وأن تمضي بحزم وعزم، وأنت تدفع.

صدر بض ناعم يرتج أمام ناظريك، ولكنك تجد نفسك من الدفع الذي وراءك مسوقا إلى ضغطه بكتفك، والمضي، غير آبه، ولا مستمتع، بل تمضي وأنت تشمئز، متقزز، إذ ترتفع ذراع أمام وجهك، لتمسك بمقبض، وتتسرب إليك رائحة إبط منتن، حتى تكاد تتقيأ، ودفعة أخرى، وإذا أنت قريب من الباب، ومرفق يصيبك في صدغك، وتضع قدمك على درج الباب، ويتحرك

الباص، ودفعة أخرى من ورائك، وتتشبث يدك بالأجساد، لا تدري ماذا تمسك، ثم تجد نفسك منقذفاً إلى الخارج.
ولادة عسيرة، وعليك أن تقف على قدميك، وألا تسقط على الأرض، وجسمك منقذف، تحمله رجلاك اللتان تتعثران، وتصدم بجسم امرأة، وتقف، فتعتذر.
وتمضي، تتحسس جيبك، بطاقة الهوية والراتب في موضعهما، ولكن الراتب بعد قليل لن يكون في موضعه، أين القلم؟ لقد سقط القلم، وتلتفت تبحث عنه، ولكن لا أثر له، ضاع القلم، سرق، أو سقط في الباص، ولكن لا يعقل أن يسرق، قلم موظف صغير في الديوان، يسجل به الصادر والوارد لا يمكن أن يطمع فيه أحد فيسرقه.
وتسوي قميصك، تنفض الغبار عن بنطالك، تمسح العرق المتصبب من جبينك، وتمضي إلى الرصيف الآخر، وهناك يجب أن تدخل في الزحام ثانية، ولكنه زحام من نوع آخر، زحام السوق والأسعار، حيث تعرض أمامك الفواكه والخضر واللحوم، تتملاها عينك، ولا تريد مفارقتها، وهي تتأملها، والفكر يدور ويعمل، ويجري الحسابات، وفي زحمة الأسعار تسقط الشهوة، وتموت الرغبة، وتتخلى عن الحاجات حاجة حاجة.
وتنقذف من السوق إلى الطريق، فيستقبلك الجو الجاثم في ثقل واختناق، وعليك أن تمضي نحو البيت تحت الشمس الملتهبة، والأرض من تحتك تشتعل، ولا ظل ينفع.

ثم تمضي نحو البيت، تجر خطاك جراً، وقد سقط منك هناك في السوق عند اللحام والبقال واللبان نصف راتبك، وفاء دين الشهر الماضي، وأنت تحمل في يدك طبق بيض، وتحمل في الأخرى كيساً صغيراً مملوءاً باللبن، أما الخيار فقد اشتهته نفسك ولكن لم يوافق على شرائه عقلك، كما لم يوافق المدير على صرف تعويض الإضافي.

تمضي نحو البيت وقد تصبب نصف ما في جسمك من ماء عرقاً، ولو عصرت قميصك لملأ حلة، وقد وهنت قواك، وخارت قدماك، وأنت الذي خرجت من البيت قبل السابعة، وها أنت تعود إليه بعد الثالثة، ولم تتناول في أثناء ذلك شيئاً سوى فنجان قهوة، وقد تيبست يدك وتشنجت أصابعك وأنت تسجل القرارات الصادرة والواردة، والآن يدك مشدودة على كيس اللبن، والأخرى تحمل طبق البيض، والمعدة تنتظر صحناً من البيض الذي تعافه النفس في هذا الحر القاتل، ولكن الراتب يطلبه، فهو أرخص الأطعمة، في هذا الحر الثقيل.

وتنعطف نحو البيت، وإذا شاب وصبية، يد في يد، والرصيف لهما، بل الشارع كله، بل العالم، ولا معنى للحر أو الجو الثقيل الخانق، وهما يمضيان معاً مرحين يرشان على العالم كله ندى وظلاً ونسيماً.

لا، ليذهب كل شيء إلى الجحيم، الراتب والديون والحر والوظيفة والسجلات.

ستدخل إلى البيت، تعانق زوجتك، تقبل طفلتك أمل، وتستحم، تحلق ذقنك، وتخرج من الحمام لتجد زوجتك في أبهى حلة، وقد أعدت صحن البيض، وإلى جانبه اللبن المبرد، وأمل بينكما.
ستتناول غداءاً شهياً، وتشرب كأس شاي، مع زوجتك وابنتك، ثم ستخرج بهما إلى الحديقة إلى الأرصفة، إلى الشوارع، إلى المحلات، تمسك يد زوجتك، تحمل أمل حيناً، وحيناً آخر تتركها تسير بينك وبين زوجتك، أو تعدو على الرصيف أمامك، ستشتري لها دمية، وليذهب الراتب كله، ستشتري لزوجتك هدية، ولو اقترضت ثمنها.
هيفاء، حبيبتك، زوجتك، عشتما معاً الحب، وعرفتما كل الشوارع والطرقات، يدك في يدها، في صيف أو شتاء، سيان، أحلى الأوقات أوقات الظهيرة، الناس يخافون الحر، ولكن العشاق لا يخافون شيئاً، في الظهيرة تخلو لهم الطرقات، مرة اغتنمت خلو الشارع، فقبلتها، في الشارع قبلتها، أسندتها إلى جذع شجرة، ضغطت بصدرك على صدرها، وقبلتها. وتحت المطر، كانت يدك في يدها، تظللكما معاً مظلة واحدة، وأحياناً تلتصقان بعضكما ببعض، وأنتما سيران معاً، ولا مظلة، سوى الحب.
هيفاء، كانت لك، وكنت لها، وكان العالم كله لكما، أنتما معاً، لم تفكر أبداً في الراتب، ولا البيت، ولا الأثاث،

الستائر يمكن الاستغناء عنها، السجادة يمكن الاستغناء عنها، لا أساور ذهبية أو فضية، لا عقود ولا هدايا، يكفينا ثوب واحد، حسبنا أن نلتقي، أنت وأنا، بي وبك سيبنى العالم، سنشيد بيتاً عماده الحب، والحب وحده، لا شيء سواه، كل شيء يمكن أن يأتي بعد ذلك، أو لا يأتي، المهم أن نلتقي، أنا وأنت، أنت وأنا.

والآن سأخرج بك، وبأمل، لن أحلق ذقني، ولن أستحم، سنخرج إلى الحديقة، إلى الشارع، إلى المطعم، سنتناول غداءنا في المطعم، في مطعم فاخر، وسأدفع للنادل عطاء كبيراً، ولنبق بعد ذلك جائعين طوال الشهر.

-2-

- لماذا تأخرت في فتح الباب؟ ساعة وأنا واقف أنتظر، انظري ماذا أحمل، والعرق يتصبب مني، خذي، تناولي مني بسرعة، ماذا كنت تفعلين؟

- أغسل الثياب.

- ولماذا تتأخرين في الغسيل حتى الآن؟ اتركي غسيل الثياب، تعرفين وقت عودتي إلى البيت؟!

- أغسل بيدي.

- والغسالة؟ ما بالها؟ هل تعطلت؟ أمس كانت عند المصلح.

- التيار الكهربائي.

- انظري في المأخذ الرئيسي، ربما فيه عطل.

- نظرت، لا شيء فيه، يبدو أننا لم ندفع حساب الشهر الماضي.
- لم ندفع، لم ندفع، الآن سددت ديون الشهر الماضي، دفعت عند اللحام والبقال واللبان، نصف الراتب طار، ثم دخلت إلى البيت فوجدت المشكلات قد بدأت، ما إن أضع قدمي في البيت حتى تبدأ المشكلات.
- لا ترفع صوتك، أمل نائمة.
- نائمة، ولماذا هي نائمة في هذا الوقت؟
- حرارتها مرتفعة.
- وهذه مشكلة أخرى، وعليك أن تأخذها مساء إلى الطبيب، رأيت كيف تصبين المشكلات فوق رأسي فور دخولي البيت، هل هناك مشكلة أخرى؟؟
- لا، أبداً، ما في مشكلات، ولكن أنت جائع ومتعب فدخلت لتظهر غضبك.
- هذا الكلام غير صحيح، بالعكس، لو تعرفين نيتي، كنت أفكر في أشياء حلوة وجميلة.
- قل لي إذن، لماذا أظهرت غضبك في وجهي أول دخولك؟
- أوه، دعينا من هذا.
- أريد أن أعرف.
- يبدو أنني رأيتك في ثوب المطبخ فغضبت، هيا ضعي لنا الطعام.
- لا، الحمام جاهزة، يجب أن تستحم أولاً.

-3-

أدخل الحمام، وأستحم، لا جدوى، لا تبحث عن الحث، كل شيء انتهى، الأعباء والمسؤوليات والتكاليف تثقلك وتثقلها، لا تحلم، انتهى كل شيء، إذا استطعت أن تحقق بعض المتطلبات اليومية التافهة فهذا نصر عظيم، وبعد ذلك لا شيء، لا شيء.

- ألو
- نعم؟
- السيدة حسناء جلال الدين؟
- لحظة واحدة.

وغطت سماعة الهاتف براحة يدها، ثم نادت:

- يا حسناء

ودخلت حسناء من المطبخ ملهوفة، تحجل في خطواتها، وأمامها بطنها، وهي في الشهر التاسع

- من؟
- لا أعرف؟!

وتناولت منها السماعة

- ألو
- السيدة حسناء جلال الدين؟
- نعم.
- هنا مكتب البريد، لدينا برقية باسمك من باريس، نرجو الحضور لتسلمها.
- شكراً، أنا قادمة حالاً.

وضعت سماعة الهاتف، وأناملها ترتعش، وقد أسرعت دقات قلبها، وخفق الجنين في أحشائها، وانفرج فمها عن ضحكة واسعة.

- ماما، سامح سيحضر، أرسل إلي برقية.

وألقت رأسها على كتف أمها، وهي تعانقها، والدموع تقفز من عينيها.

وخطت نحو خزانتها، أخذت معطفها، وارتدته، وضعت مفاتيح السيارة في حقيبة يدها، وخرجت.

سامح سيحضر، لا شك أنه أرسل إليها يخبرها بموعد عودته, لقد كتبت إليه منذ شهر الرسالة الرابعة, تخبره أنها في الشهر الثامن, سامح سيكون إلى جانبها, سيشد على يدها, ويشجعها, سيشهد وليده, هل ستضع ولداً أو بنتاً؟ هل سيستاء إذا وضعت بنتاً؟ لا تعرف في الواقع حقيقة مشاعره, أو منحى تفكيره.

بعد أسبوعين من الزواج تركها وسافر, حين تقدم إلى خطبتها كانت تعرف جيداً أن عمله التجاري يقتضي منه السفر دائماً, ولكنها لم تتوقع أن يكون سفره بمثل هذه السرعة, وقد اكتشفت أن المعرفة شيء, والمعاناة شيء آخر, ولكنها سلمت بالأمر الواقع, وقالت غداً يرجع, يغيب أسبوعاً, أو شهراً, أو شهرين ثم يرجع, ولكن غيبته استمرت ثمانية أشهر, وهي كل يوم تتوقع منه رسالة, أو اتصالاً هاتفياً, بعد وصوله بأيام أرسل إليها بطاقة, ثم لم يكتب شيئاً.

منذ يومين فقط اتصلت بأمه, فقالت لها بصوت بارد:

- هكذا عمله, يأتي إلينا أسبوعاً أو أسبوعين, ثم يسافر, ولا يرجع إلا بعد سنة, أو أكثر.

لم تقل لها لا تقلقي, ولم تطمئنها بشيء.

دخلت سيارتها, أدارت المفتاح, وانطلقت, وهي تمسح الدموع من عينيها.

سامح سيأتي, لقد بعث إلي برقية, يحدد فيها موعد وصوله, سيحضر, ومعه ثياب المولود,وهدايا كثيرة, لا حاجة لشراء شيء من السوق, سيكون إلى جانبي, سيأتي قبل الولادة بأسبوع على الأقل.

ومرت بشقتها, نظرت إلى الشرفة الأمامية, النوافذ مغلقة, منذ أسبوعين لم تدخل الشقة, كل شيء في مكانه, لا حس ولا حركة, وحتى لا غبار, مثل المتحف.

سترجع من مكتب البريد إلى الشقة, ستفتح النوافذ, وتدعو الخادمة لتنظيفها, ستساعدها هي بنفسها في تنظيف البيت, ستعد كل شيء لاستقبال سامح, ولاستقبال بشار, أجل سوف تسميه بشاراً, وإذا وضعت بنتاً سوف تسميها بشرى.

لم تتزوج لتعود إلى بيت أبيها, وترجع إلى العيش مع إخوتها وأخواتها, كانت تمني نفسها بأن يكون لها بيت صغير, تأتي إليه من عملها, لتلتقي بزوجها وقد عاد من عمله أيضاً، فيشتغلان معاً في إعداد الطعام, وفي المساء يذهبان معاً في نزهة, ويرجعان إلى البيت متأخرين.

سامح لم يشأ أن تعمل, أكد لها أنه في غنى عن راتبها، أغدق عليها كل شيء، شقة من خمس غرف مفروشة بأحدث الأثاث، وخادمة، وسيارة، ورصيد في المصرف.

توقعت أن تسافر معه، هيأت نفسها للغربة مشقة السفر وعناء البعد عن الأهل والعيش في بلاد تسمع عنها كثيراً، ولكنها لا تعرفها، أعدت نفسها للكدح، لتكون زوجة، وشريكة عمر، ورفيقة سفر، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، ها هي ذي مع أهلها، بين أمها وأبيها وإخوتها، وإذا دخلت شقتها، وجدت نفسها دمية بين أشياء فخمة.

حين يصل لن تسمح له بالسفر مرة ثانية، ستعيش معه عيش الكفاف، ولن ترجو شيئاً، ولن تسأله شراء حاجة، ليعمل هنا في أي عمل كان، لا حاجة للسيارة، ولا لتلك الشقة الواسعة، أو فلتسافر معه، لن تتركه يذهب وحده.

أمام مبنى البريد أوقفت سيارتها، وأخذت تصعد الدرجات بخطا جهدت في أن تكون حثيثة، وقد وضعت يدها تحت بطنها، وهي تحس بحركة الجنين.

قدمت للموظف بطاقتها، تسلمت البرقية بأنامل مرتعشة، وقعت، وفضت الغلاف، ووقفت في البهو تقرأ.

وهي تقرأ، اقترب منها شابان، همس الأول:

- ما هذا الجمال؟

وأضاف الثاني:

- يساوي ثقله من الذهب.

نظرت إليهما وهي تطوي البرقية وتضعها في جيبها، وقد أحست بتيبس في حنجرتها، شعرت باختناق، جاش في وجدانها جواب، ولكنها لم تقل شيئاً.

وهبطت على الدرجات، وهي تحس بثقل شديد في بطنها يهبط إلى أسفل، وقد امتلأت محاجر عينيها بالدموع.

اتجهت سيارتها بصورة آلية، كأنها في حلم، دخلت سيارتها، وهي غير مصدقة، هل هو حلم؟ أم هو واقع؟ ليت أنه حلم.

وهي وراء المقود فتحت البرقية مرة أخرى، وأخذت تعيد النظر إلى كلماتها، وهي تراها من خلال الدموع:

"اشتريت الهدايا، وحجزت للسفر، ولكني تسلمت مشروعاً جديداً، فاضطررت لإلغاء الحجز، حولت لرصيدك ثلاثة آلاف دولار- زوجك سامح".

حادث في الشارع الخلفي

زعيق سيارة الإسعاف يتسرب إلى المقهى، قادماً من بعيد، يختلط بدخان السكائر وضجيج الرواد ولغطهم، ثم يطغي، فيقطع اللغط، ويسود صمت غير مألوف.

يطوي الصحفي مجلته، يضعها تحت إبطه، يطفئ بقية سيكارته، يرشف القطرة الأخيرة من فنجانه، ثم ينهض.

ويدخل النادل معلناً: " حادث في الشارع، خلف المقهى".

ويعلو الضجيج، بين سائل ومحوقل، ويندفع بعض الرواد إلى الخارج، وفي مقدمتهم الصحفي، ويلبث آخرون في مواضعهم، وشيئاً فشيئاً ينتظم اللغط، ويعود إلى ما كان عليه، ودخان السكائر ينعقد في فضاء المقهى سحابات سحابات.

تمتلئ الشرفات بمن يقف.. ينظر إلى الشارع، مطلاً عليه من عل.

في شرفة يغمى على سيدة، فتحملها الخادمة إلى الداخل، ثم تصحو، فترجوها الخادمة ألا تعيد النظر إلى الشارع.

وفي شرفة أخرى تشم سيدة شابة رائحة طعام يحترق، فتسرع إلى المطبخ، تطفئ الموقد، وترجع إلى الشرفة.

وتسرع إحدى الأمهات إلى الدرج، تهبط عليه، تعدو، تقفز، وقلبها يخفق، وعيناها لا تكاد تبصر بهما، وفي أسفل الدرج تلتقي بابنتها، وهي تحمل حقيبتها، فلا تصدق، تحتضنها، تقبلها، وتبكي.

*

غيوم داكنة تملأ السماء، تحركها الريح، فتسوقها متدافعة، بعضها يصطدم ببعض، مثيرة إحساساً أكيداً بوشك انهمار المطر.

وترسل السيارات أبواقها زاعقة في قهر وضيق، ويسرع شرطي المرور، وصفارته تولول، وهو يشير إلى السيارات، يحثها على الرجوع إلى وراء، لتمر بشارع فرعي آخر.

وفي داخل سيارة أجرة يقول راكب قابع في الطرف الأيمن من المقعد الخلفي:

- دائماً رعونة السائق هي المسؤولة.

ويرد عليه السائق:

- وكثير من المشاة لا يتقيدون بإشارة المرور، ولا يميزون اليمين من الشمال.

وفي سيارة أخرى يقول السائق:

- معظم الحوادث سببها السيارات الخاصة، لأن أصحابها لا يجيدون القيادة.

ويؤيده راكب يقعد إلى جانبه، فيقول:

- وبعضهم يحصل على شهادة القيادة من غير أن يجري فحصاً.

ويزمجر الرعد، ويدمدم، والشارع تلفه غلالة سوداء، وتسقط قطرات المطر.

*

الصحفي يرجع إلى المقهى، والمجلة مطوية تحت إبطه، يتلقاه بعض الرواد بالأسئلة، ولكنه يعتذر، مؤكداً أنه لا يعرف شيئاً، يتخلص منهم، ويتوجه إلى الهاتف يتصل بالمسؤول الفني في المجلة:

- ألو، أرجو إرسال مصور إلى الشارع /34/ خلف مقهى "الانتظار" هناك حادث، أنا هناك، ساعد تقريراً على الفور.

يشعل سيكارته، ويرجع على الشارع.

تغادر الشارع سيارة الإسعاف، وتحضر أخرى، تتبعها سيارة للشرطة.

على الرصيف، بجانب الجدار، تقف شابة تتقي المطر، وهي تنظر إلى الناس المتجمهرين حول موضع الحادث.

يقترب شاب من الشابة، كان يطاردها منذ حين، يقف قربها، يفتح مظلته يتريث برهة، ثم يقول لها:

- كل الحوادث سببها السرعة.

تلتفت إليه مدهوشة، ثم تشيح عنه.

يدنو منها، يهمس:

- تعالي نبتعد عن المكان، حتى لا نرى منظراً مفجعاً، من الممكن أن نمر بشارع آخر.

لا تبالي الشابة به، فيدنو منها، ويهمس ثانية:

- سيري إلى جانبي، معي مظلة.

ترميه بنظرة ازدراء، ثم تمضي، فيتردد برهة، ثم يتبعها حاملاً مظلته.

*

ويدوي صراخ مفجع، له صرير حاد، ويلتفت الناس، وإذا رجل يفتح محله، مرسلاً إلى فوق الباب الحديدي، وقد دفعه بقوة، كي يلتوي ويلتف.

وقبل أن يدخل الرجل إلى محله، يقترب منه شيخ عجوز، يسأله:

- ماذا حدث؟!

فيجيبه متذمراً:

- لا أعرف، كنت في البيت أتناول الغداء، والآن فتحت المحل، كما ترى.

*

السماء تدمدم، والمطر ينسكب في دفقات غزيرة.

والصحفي يحمل تحت إبطه مجلته، وبين شفتيه بقية سيكارة، يسأل هذا، ويحاور ذاك، وفي ذهنه تصاغ بعض العبارات، وعيناه تنظران إلى هنا وهناك، يبحث عن المصور.

والمطر ينسكب.

*

ويـرن جـرس الهـاتف فـي محـل "الأناقـة" لبيـع الثريـات الايطالية الفخمـة، فيرفـع أحد العـاملين فـي المحـل سماعة الهاتف، ويجيب:

- نعم؟!
- هل هنا السيد عبد العزيز؟!
- لا.
- متى يرجع؟!
- لا أعرف، ولكن من يطلبه؟ وما الأمر؟!

ويغلـق الخـط، فـيحس العامـل بالضـيق، ولكنـه يضـع السماعة، ويمضي ليستقبل أحد الزبائن.

*

يـرن جـرس الهـاتف فـي منـزل غيـر بعيـد مـن الشـارع، فترفع الخادم سماعة الهاتف، وتجيب:

- ألو؟!
- السيدة إلهام؟!
- لا، أنـا أم أحمـد، السيدة ليسـت هنـا، أنـا أعمـل فـي تنظيف البيت.
- أين ذهبت السيدة؟!
- ذهبت إلى الكوافير، ولكن من يطلبها؟!
- إلى أي كوافير؟!
- لا أعرف، ولكن لم تقل من أنت؟!

ويغلق الخط.

*

ويدخل محل "الأناقة" رجل لاهث، بلله المطر، يسرع إلى العامل يسأله:

- قل لي أين السيد عبد العزيز؟!
- ليس هنا.
- أعرف، ليس هنا، أنا اتصلت منذ دقائق، واتصلت بالبيت أيضاً، ولكن لا أحد، قل لي أين هو؟!
- لماذا؟!
- أجبني، الأمر ضروري، إلى أين ذهب؟!
- لا أستطيع إخبارك إلا إذا عرفت ما الأمر؟!
- هناك حادث سيارة مع ابنه، أين هو؟!
- في المطعم، مع وكيل شركة ايطالية، وطلب ألا أخبر...
- ما اسم المطعم؟!
- السفراء...

ويسرع الرجل إلى الشارع، قبل أن يعرف موقع المطعم، ويشير إلى سيارة أجرة، ويطلب من السائق أن يوصله إلى مطعم السفراء.

*

وتحت المطر المنسكب تتحرك سيارة الإسعاف، مرسلة زعيقها الحاد، تتبعها سيارة للشرطة، وهي تحمل ثلاثة رجال رأوا الحادث، وتطوعوا للإدلاء بشهادتهم.

وتعود السيارات إلى عبور الشارع، ومن نوافذها ينظر الركاب إلى سيارة بويك سوداء، تقف منحرفة نحو الرصيف، كأنها تريد الوثوب غليه، وهي تلتمع تحت المطر.
وعلى الإسفلت الأسود، قريباً من الرصيف، رامة دم، تسقط فيها قطرات المطر، فتمتزج بالدم، ثم تسيح مصبوغة بلونه القاني.
والمارون يحثون خطاهم، يتقون المطر، ملقين نظرة عابرة على السيارة، وأخرى على بقايا الدم المسفوح، والمطر يغسله.
والرعد يزمجر.

*

ويدخل الصحفي مكتب المجلة، وهو يمسح شعره المبلل، يطرق باب المسؤول الفني، ثم يدخل سائلاً:

- لماذا لم يحضر المصور؟ أين هو؟!

فيجيبه المسؤول الفني:

- المصور مع زميل من التحرير، في حفل افتتاح معرض الزهور الاصطناعية.
- أرجو إعداد صورة من قسم الوثائق لحادث سيارة.

ثم يخرج متجنباً أي سؤال.
ويسرع إلى غرفة التحرير، يعلق معطفه على المشجب، يلقي على زملائه تحية سريعة، ويقعد وراء إحدى

المنضـدات، يشـعل سـيكارة، ويسـتل مـن الـدرج ورقـة صغيرة، ويكتب عليها:
"صـبية فـي الرابعـة عشـرة، كانـت عائـدة إلـى البيـت مـن المدرسة، وهي تحمل حقيبتها بيد، وبيدها الأخرى تمسك يد صديقتها، ذهبت ضحية شاب دون الثامنة عشرة, هو شقيق صديقتها, كانت أمه قد أعطته مفتاح سيارة أبيه, كي يوصلها إلى الكوافير, ثم تركت السيارة والمفتاح, وهو لا يحمل شهادة قيادة, فأخذ يطارد أخته وصديقتها, أخته شج رأسها, وصديقتها توفيت على الفور, وهو في حالة قاسية من الانهيار العصبي."
يرمي القلم, وينهض, وهو ينفث دخان سيكارته, يحيي زملاءه بإيماءة, متعذراً, يطفئ سيكارته, ويدخل على مدير التحرير, يقدم إليه الورقة, من غير أن يعيد النظر فيها.
الدير يقرأ, ثم يقول:
- هذا هو الحادث الرابع, في هذا الأسبوع.

*

ويرجع الصحفي إلى موضعه المألوف في المقهى, ينظر من خلال الزجاج إلى الشارع, والمجلة مبسوطة أمامه على المنضدة, وهو يحل الكلمات المتقاطعة, ويرشف القهوة, والمنفضة تمتلئ بين يديه شيئاً فشيئاً ببقايا السكائر.

والمطر ينسكب من السماء, فيتلوث بدخان السيارات, ثم يسقط على الإسفلت الأسود, فيتحول إلى طين عكر, ورامات صغيرة, تغطس فيها عجلات السيارات.
وسحابات من دخان سكائر ما تزال تنعقد في فضاء المقهى, تنضم إليها سحائب مؤتلفة من لغط الرواد وصوت النادل, في انسجام لا يعكره شيء.

-1 -

على الرصيف, في مواقف انتظار الحافلات, تحت مظلات المحلات التجارية, في الأسواق, في الحدائق, في الشوارع المتحلقة حول المدينة, في الأزقة الضيقة المغلقة, في الطرق المأهولة, في الطرق الخلوية, نلتقي, نلتقي.

في كل مكان يمكن فيه اللقاء, أو لا يمكن, أو لا يمكن, نلتقي, حتى المتاحف ودور الحكومة ومباني الهيئات العامة وقاعات المحاضرات نقصدها معاً, لا لشيء, إلا لنلتقي.

لم تبق سوى المشافي, لم نقصدها, ولاسيما مشفى المجانين.

في الحر القائظ , تحت المطر المنهمر, في السيل الجارف, في السيل المتطاير ندفاً, في الريح العاصفة, في الوهج اللافح, صباح مساء, في الصيف والربيع والشتاء والخريف, في كل الفصول, نلتقي نلتقي.

وهنا, عند هذا المقعد, أنتظر, منذ ربع ساعة, وأنا أنتظر.

نلتقي, وفي القلب شوق عارم إلى اللقاء, ساعات قبله ونحن نتهيأ له, أنا أتهيأ له, أنتظره, وأنت تتهيئين له, أعرف ذلك, أتشوق, تتشوقين, إلى لحظة اللقاء, وحين نلتقي, نبدأ اللقاء بالعتاب, باللوم, بالخصام،

بـــالتقريع, لا أعـــرف لمـــاذا, لا تعـــرفين, ألومـــك, تلومينني, نختصم, ثم نصمت, نبقى صامتين, لا أجد كلاماً أقوله, لا تجدين كلاماً, وأنا أعرف أن لديك أشياء كثيرة لتقوليها, ولكنك لا تتكلمين, وأنا لدي مثل ما لديك, ولكن لا أتكلم.
أختنق, أحس بالضجر.
الصمت يقتلنا, بل يجمعنا, الآهات تلفنا بحبال خانقة, أحياناً نهرب معاً إلى الأحلام, نتحدث عن السفر والرحلات والأمنيات المستحيلة, سنسافر معاً في القطار, أنا أحب القطارات, بل سنسافر في الطائرة, سنحلق معاً, وأنت إلى جانبي في مقعد الطائرة, نرى المدن والجبال والعالم.
وفي أحايين أخرى أحدثك عن أمنيات مختلفة، أجملها أن أراك معي في البيت، تعيشين مع أمي وأخوتي، ويجيء أبي في المساء ليزجرك، كي تنامي باكراً، وحول المائدة يسقط من يدك كأس الشاي، فينسكب على ثوبك، مثلما تفعل أختي منى كل صباح، وتهم أمي بضربها، ولكن أبي يمنعها منى الطفلة الوحيدة المدللة، آخر العنقود.
مررت أمس بدكان والدك، رأيته قاعداً وراء الميزان، وأمامه في صناديق خشبية قليل من الخضار والفواكه، ينتظر المشترين، الخضار والفواكه ذابلة، متجعدة، كأنه لم يبع منها شيئاً منذ أسبوع، وهو قابع

وراء الميزان، ينظر على لا شيء، يحدق في الفراغ، ويفكر، أطلت النظر إليه من بعيد، لم ينتبه إلي، أحببت وجهه المتعب، فكرت في الحديث معه، ولكنني مضيت قبل أن يرفع رأسه إلي.
أنت أحببت أمي، مع أنك لم تريها، قلت لي: "أحببتها من خلال حديثك عنها"، مع أن حديثي كله كان عن ضجرها وضيقها بالبيت والأولاد وإعداد الطعام واضطرارها إلى العمل في خياطة الثياب النسائية داخل البيت للجيران والأقارب كي تساعد والدي، وتدعم راتبه الضئيل، أكدت لي أنك تحبين خياطة الثياب، وتودين تعلم هذه المهنة.
ولكن لماذا تأخرت هذا اليوم؟1 ليس من عادتك التأخر، نصف ساعة مرت، وأنا هنا، والشمس مائلة على الغروب، وما أزال أنتظر، مدخل الحديقة أمامي، في الثلج المنهمر جئت، ما تأخرت، واليوم، لم هذا التأخر؟! سأبقى أنتظرك إلى المساء.
لا أحد سواك، أنت وحدك، في وجهك أرى العالم كله، كأني أعرفك منذ دهر، أحس أنك جزء مني، وأنا جزء منك، اسمك واسمي اعتنقا إلى الأبد، معك أحس كل شيء جديداً، شوارع كثيرة مررت بها من قبل، ولكن حين أمر بها معك أحس كأني أراها أول مرة، وأنت تتحدثين أتلقى وجهك بقلبي، يشع دفئاً، كالشمس الغاربة، أرنو إليك، فتستيقظ روحي، وتتفتح

بـراعم الـورد الأبـيض والأحمـر والأصـفر، تتمايـل أزهـار النـرجس، ويعبـق البنفسـج النـاعم، ثـم أحـس بشيء من القهر، شيء ما يقيدني، يقهرنـي، لا أعـرف ما هو.

لماذا تأخرت، مدخل الحديقة أمامي، وأنـا عند المقعد أنتظر.

مـا أزال أذكـر يـوم اتصلت بـي فـي الهـاتف، وسـألتني عن لقائنـا مسـاء، أجبتك بجفـاء: "لا"، ورجوتـك إنهـاء الاتصـال الهـاتفي، ثـم أقفلـت الخـط، كنـت أريـد إنهـاء لقاءاتنا، أو كنت أحاول ذلك، كنت لا أريد خداعك، أو التغريـر بـك، أعـرف أن زواجنـا مسـتحيل، لـيس بإمكـاني شـراء دار، ولا اسـتئجارها، ولـيس بإمكانـك مسـاعدتي علـى ذلـك، كلانـا موظفـان مـن الدرجـة السادسـة، راتبـي وراتبـك لا يكفيـان، وأنـا أحببتـك بصدق، ولا أريد أن أثير في نفسك مشـاعر الحـب، ثـم أتركك بعد ذلك للحزن والألم. لذلك طلبت منك بجفـاء إنهـاء الاتصـال الهـاتفي، لعلـك تغضـبين منـي، لعلـي بـذلك أسـيء إليـك فأضـطرك إلـى قطعـي، ولكـن بعـد دقائق دخلت علـي غرفـة المكتـب أول مـرة تـأتين فيهـا إلي في مقر عملي، دخلت لتقولي: "لن أتخلى عنك".

أعـرف أنـي كنـت أتصـرف عكـس رغبتـي، أدرك أنـي كنت أناقض نفسي، أصد عنك وأنا مشتاق إليك، أبتعد عنـك وأنـا محتـاج إليـك، حـين لا أراك يظلـم قلبـي،

وحين تأتين إلى اللقاء تطير إليك روحي، أراك من بعيد وأنت قادمة إلي، فأسرع إليك، حتى أسبقك إلى نقطة اللقاء، أتمنى حين أراك لو أحملك أضمك إلي، أقبلك، ما أزال أذكر حين وصلنا مرة إلى الموعد معاً في لحظة واحدة، والتقينا معاً كأنما كنا نسير وفق نبض قلبينا، أحس أنا على اتفاق في كل شيء، روحي وروحك امتزجا في كأس واحدة.

هل نفترق إلى الأبد، هل نقرر الفراق، حاولت ذلك، ولكن لم أقدر، ولعلك حاولت، ولكن لم تقدري، أنت لم تصرحي، ولكن أنا أعرف، ليتنا نختصم مرة، ليتني أسيء إليك فتكرهينني، وتبتعدين عني، ليتك تسيئين إلي، فأحقد عليك، ليتك تؤذينني فأبغضك وأنساك، ولكن كل أخطائك مغفورة، كل أفعالك حلوة.

ماذا نفعل؟ إلام نسير؟! جميل ما بيننا من صمت، من كتمان، من عدم بوح، ولكن لست أدري لماذا أحس بنفاد الصبر، وأدرك أنك تحسين بذلك أيضاً، أريد أن أبوح لك، للناس، للعالم كله، أنا أحبك، إلى متى سأبقى أحمل النار في قلبي، إلى متى سيبقى ذلك الطائر حبيس صدري، أنا أحبك، أريد زوجة لي، أريد أن نبني بيتاً صغيراً، وأن يكون لنا معاً أولاد، نستيقظ صباحاً على أصواتهم، أراك بقربي، نذهب إلى العمل معاً، نرجع مساء لنداعب أولادنا، ونخرج في نزهة، أنا أحبك، لا أريد خداعك أو تضليلك.

أريدك شريكة العمر، معك أقتسم الفرح والحزن، أحمل همومك، وأمنحك سعادتي، نعيش معاً في الصحة والمرض في الغنى والفقر، بل نعيش معاً في الكدح والشقاء والبؤس والفقر والقهر، أنا أعرف أننا نملك الفرح ولن نكون أغنياء ولن تكون لنا دار ولا سيارة ولن نتمكن من السفر، بل لعلنا لن نتمكن من الحلم ولو بنزهة إلى الحديقة، ولكن حسبنا أن نكون معاً الهواء والنور، وجودنا معاً هو الصحة والسعادة والغنى.

مضت خمسون دقيقة، ولكن لا بد أنك آتية، لا شيء يحول بيني وبينك، لا شيء، لا شيء، سوف أراك داخلة إلى الحديقة، سوف أسرع إليك، أطير إليك، أميل عليك وأهمس لك: "أنا أحبك"، وأنظر في عينيك، ثم أسألك: "أنت الآن تعيشين مع أبويك وأخوتك في منزل لا شرفة فيه ولا إطلالة له على الشارع وليس فيه سوى غرفتين"، وتقاطعينني سائلة: "نعم؟" وأسألك: "ما رأيك في الانتقال، إلى منزل آخر، شبيه به، لا يقل عنه سوءاً، ولن تكون لك فيه فراش ولا موضع للنوم، لتعيشي فيه أيضاً مع أبوين وخمسة أخوة، ولكن أكون فيه أنا معك، زوجاً؟!"، وتنطلق ضحكتك، مشرقة كالشمس، وتجيبين مغمضة العينين: "نعم"، فأضمك إلى صدري، وأقبلك.

-2 -

ها أنت ذي، تدخلين الحديقة، وها أنا ذا أطير إليك، ولكن، ما بالك تمشين الهوينى، وتشيحين بوجهك، تنظرين إلى الطرف الآخر، وما بال عينيك محمرتين.

- لماذا تأخرت؟ قلقت عليك.

- لن تقلق بعد اليوم، هناك من سيقلق بدلاً منك.

وألتفت إليك مذهولاً، وأسأل:

- ما هذا الكلام؟!

وينفجر الدمع في عينيك، وأدعوك إلى المقعد الذي طالما ضمنا معاً، فتعتذرين، وتؤكدين:

- يجب أن نبحث عن مكان آخر، لكي أخبرك فيه.

ونسير معاً، لا حديقة ولا شمس ولا سماء، سوى عينيك والدمع، وأنا أختنق لصوتك المحشرج.

- اسمع، المحل الذي يعمل فيه والدي ليس ملكاً له، وكذلك الخضار والفواكه التي يبيعها فيه، هو لا يشتريها، وإنما يرسلها إليه تاجر كبير، هذا التاجر يملك عشرات المحلات، من مثل محل والدي، والناس يعملون أجراء، منذ سنة أو أكثر، بدأ أبي يقترض من ذلك التاجر، والديون تتراكم عليه، الخضار تتعفن والفواكه تذوي، يوم أمس زارنا ذلك التاجر، زار أبي في البيت، أرسل غلينا صندوق تفاح وصندوق برتقال، وطلب مني الزواج.

- ووافقت؟!
- نعم، وافقت.
- أنت، أنت وافقت؟! أنت مثقفة وموظفة، أنت من جيل آخر، غير جيل أمك وجدتك.
- ليست قضية جيل وجيل، وإنما قضية غني وفقير.

ولكن، أكاد أجن، كيف تمسحين دموعك هكذا، وتضحكين، تضحكين بجنون، لا أكاد أصدق، وتمسكين يدي، أول مرة تمسكين يدي، يدك ناعمة باردة مثلجة، أحس أناملي تشتعل.

- اسمع، لست صغيرة ولا بلهاء، ولست من جيل أمي ولا جدتي، وقد وافقت عن قناعة، وافقت لأجلك أنت.
- ما هذا؟!
- تعال إلى المقعد الذي يضمنا دائماً معاً، وسأحدثك.

يدي ما تزال في يدك، وأنت تضمينها إلى صدرك، تسيرين بقربي، كتفك في كتفي، أول مرة نسير هكذا، كأنك تهبينني روحك.

- اسمع، لقد عرفت أن أمثال ذلك التاجر هم الذين يسرقون أموالنا، ويحرموننا الحياة الكريمة، تخيل ذلك التاجر، تجاوز الخامسة والخمسين، ويفكر في الزواج من فتاة في الخامسة والعشرين، عنده سبعة أولاد، أصغرهم في عمري، ولديه ثلاث سيارات، سيشتري لي داراً فخماً في الحي الغربي

من المدينة، في أرقى منطقة، وسيسامح أبي في ديونه كلها، وسيملأ محله بالخضار والفواكه، ويزوده بمبلغ ليعمل به لحسابه الخاص، أنا سأتزوج منه لأنتقم لي ولك ولكل الفقراء منه، هذه خطة للانتقام.

- لكي تطلقيه فيما بعد، أو تقتليه وترثي أمواله، أو تنتظري على الأقل موته.

ضحكتك الرنانة تفجعني، تدمر الحديقة وتقتلع الأشجار وتقلب التراب وتفتت كل الحجارة وتقتل الجذور.

- لا، لن أفعل هذا ولا ذاك، بل سأحافظ عليه، لأجلك أنت، لأجلك وحدك، سأفتح لك بيتي، قد ينال جسدي، ولكن لن يمتلكه، أنت وحدك لك الجسد والقلب والروح.

أحدق في عينيك أول مرة أحس فيهما القهر والعذاب، أقول لك:

- لا،لا.

الشمس تغيب في الأفق الغربي، الكون يكتسي لوناً رصاصياً، وفي الأفقي الشرقي يبدأ القمر في الظهور، محمراً، وضباب فضي يغشاه.

وعلى مقعد خشبي موظفان بائسان، يقعدان معاً، وقد تشابكت أصابع يديهما.

يلوح على وجه القمر الكئيب طيف ابتسامة.

الأرصفة

رجع إلى البيت بعيد الظهر، يسوق أمامه عربته، يدفعها، فتعدو خفيفة، مرحة، وقطع النقود تخفق في جيب سرواله، وقد أمال قبعة رأسه إلى الوراء.
وثمة شيء ما يحس أنه غائب، مقتطع، مأخوذ، ولكنه لا يريد أن يذكره، لقد باع كل شيء، وعزم على أن يرتاح بقية اليوم.
وقبل أن يدخل زقاق حارته، مر بجاره الفران، فأخذ ضعف ما كان يأخذ كل يوم من خبز.
وهو واقف أمام الفران أحس بشيء يعكر مزاجه، رأى الفران يضع أرغفة الخبز في كفة، والوزنات في كفة أخرى، وتأرجح الميزان، فذكر شيئاً كان لا يريد أن يذكره، كان يحاول نسيانه، فقلق واضطرب، ولكنه تناول أرغفة الخبز، ولم ينظر على الميزان، ومضى في الزقاق.
وأمام باب الدار ترك عربته، ودخل، يحمل أرغفة الخبز، وكيساً صغيراً من الخيار، تركه للعيال، وما إن رأى زوجته، وهي تحمل ابنها الرضيع سامر، حتى صاح بها، كأنه يريد استباقها، قبل أن تسأله عن شيء لا يريد تذكره، فقال:

- هيئي الغداء، وحطيه في صرة.
- إلى أين؟!

فأجابها وهو يتناول منها ابنه سامر، ويناولها الخبز والخيار:

- إلى أرض الله الواسعة.

التفتت إليه وسألته بعفوية:

- أين الميزان؟!

تخاذل، وكاد سامر يسقط من بين يديه، ونظر إلى فناء الدار، فرأى كرسياً صغيراً، فقعد عليه، ووضع سامر في حجره، وأمال قبعة رأسه إلى أمام، وأطرق صامتاً، فسألته:

- أخذته شرطية البلدية؟!

لم يجب، فأضافت:

- هذه هي المرة الثانية، في أسبوع واحد.

نهض، وأمال قبعة رأسه إلى وراء، وسأل بهدوء:

- أين الأولاد؟

- في الزقاق.

- كم مرة قلت لك لا تسمحي لهم بالخروج؟!

ثم خرج إلى الزقاق، فصاح فتقاطر إليه الأولاد، من أقصى الزقاق, ثيابهم معفرة بالتراب, ورؤوسهم مهوشة بالشعر.

وقبل أن يدخلوا إلى الدار, تلقى كل منهم ضربة على قفاه, حتى (سمر) الصغرى, فتراكضوا إلى المطبخ, يحتمون بأمهم, فقال لها:

- سأسبقك إلى موقف الباص, بدلي ثيابهم, ولا تتأخري.

ثم خرج ومضى في الزقاق, وبعد قليل أحس بأحمد وراءه, فالتفت إليه, رآه لم يبدل قميصه, فسأله:

- لماذا لم تبدل قميصك؟

- أمي قالت أنه نظيف.

شتمه, وشتم أمه, ثم مشى, ومشى (أحمد) إلى جانبه.

لا، لن تصبح بائع خضراوات، مثلي، تدفع العربة، وتطاردك شرطة البلدية، سوف تدرس، وستصبح معلماً، أستاذ مدرسة، ويكون لك بيت، في غير هذه الحارة، لا، لا، لن تبعد عني، سيكون لك بيت في هذه الحارة، قريباً مني، ولكنه أفضل من بيتي، ويكون ملكاً لك، لا، لا، لن تكون مستأجراً طوال العمر.

وجاء الباص، وصعدوا فيه، وانطلق بهم، والأولاد في مقعد، يضجون، ويتنافسون في الإطلالة من النافذة، ومد أيديهم ورؤوسهم منها، وأم أحمد إلى جانبه، في مقعد آخر، وراء الأولاد، تحاول الالتصاق به، وهو يبتعد عنها.

ثم التفت، فرأى امرأة واقفة، فاغتنم الفرصة، فوقف، وتخلى عن موضعه، ودعاها إلى القعود، فرمقته زوجته بغضب، فتبسم.

وبعد قليل، التفت إليه أحمد سائلاً:

- بابا لماذا أخذوا منك الميزان؟!

أحس بالضيق، لكنه اصطنع ابتسامة، وقال:

- لا تشغل بالك، الحمد لله بعت كل الخيار، وامتلأ جيبي بالنقود، وغداً أذهب إلى المخفر، فأدفع الرسم، وأسترجع الميزان.

فقال أحمد على الفور:

- بابا، لماذا لا تتركه لهم، وتشتري ميزاناً آخر؟!

ضحك، ومسح رأس أحمد بيده، وقال له:

- ثمنه يا بني عمل يومين أو أكثر.

فأضاف الولد:

- ولكن، أنت تعمل دائماً، ولا تعطل، مثلما نعطل، نحن في المدرسة؟

ضحك ثانية، ثم أحس بالضيق، وكانوا قد بلغوا الحي الذي تقع فيه الحديقة، فنزلوا جميعاً.

وعلى الرصيف وقفوا، ليعبروا الشارع إلى الطرف الآخر، كانت أم أحمد مشدوهة، ولم تلبث أن قالت:

- ما هذه المنطقة، كأنها باريس؟!

فسألها على الفور:

- وهل رأيت باريس؟!

وسارا معاً على الرصيف، يتقدمهما الأولاد، يتراكضون، ويمرحون، وكان سامر قد نام على يد أمه، وهي تحمله، والأب يحمل صرة الطعام، ويلوح بها، وأمامه تمتد السيارات مصفوفة على جانب الرصيف.

وأمام سور إحدى الأبنية، وقفت، تتأمل طفلين يلعبان في حديقة فسيحة، أحدهما يمتطي دراجة بثلاث عجلات، والآخر يقذف بكرة صغيرة، فالتفتت إلى زوجها، وقالت:

- لا تعاتبني إذا خرج الأولاد إلى الشارع ليلعبوا، ولا تعاتبني إذا تخاصموا مع أولاد الجيران، دارنا صغيرة، وباحة الدار أصغر، كالسجن، ولا يمكن للأولاد أن يتحركوا، وطول النهار هم أمام وجهي، ماذا تريد أن أفعل، لا بد من خروجهم إلى زقاق الحارة...

صاح بها مقاطعاً:

- فهمنا، والله فهمنا، يكفي، محاضرة، درس، جئنا لنهنأ وننسى، ما جئنا لننزعج.

وعلا صوت كلب ينبح، وصراخ أولاد، وبكاء، فصاح:

- أين الأولاد؟!

وكانا قد بلغا مفترق طرق، فحث خطاه، وتقدمها، يحمل صرة الطعام، وتلفت، ينظر إلى هنا وإلى هناك، وإذا الأولاد يعدون إليه، من شارع فرعي، وهم يتصايحون، ويبكون، مذعورين.

وارتمى أحمد بين يديه، وهو يلوي ذراعه، ويبكي، فصاح به يسأله عما به، فلم يجب، فقال صلاح يخبر أباه:

- بابا، أحمد عضه الكلب، وقف يتفرج على مرآة السيارة، ومد يده من نافذتها، فعضه الكلب.

ونظر، وإذا كلب أسود، ضخم، يمد رأسه من نافذة سيارة مصفوفة إلى جانب الرصيف، وهو ينبح نباحاً حاداً، وأخذ يتفحص ذراع أحمد، على حين كانت الأم تصيح قائلة:

- ولي يا بني، الكلب عضك، يا ليتنا ما خرجنا من البيت، يا ليتنا ما خطونا خطوة، الله يلعن الحديقة، لو كنا ذهبنا إلى بيت أهلي.

وكان سامر أفاق على أصوات إخوته، فأخذ يبكي بكاءاً متصلاً، وأمه تهدهده، تحاول إسكاته، فضاق ذرعاً، وصاح به:

- اسكتي، وأسكتي الولد.

وتقدم رجل أنيق، نحو الكلب، وربت على رأسه، فسكت، ثم التفت إلى أبو أحمد وقال:

- أمسك أولادك، ولا تتركهم ليسيروا وحدهم.

فدهش لقول الرجل، وصمت، وإذا الزوجة تصيح بالرجل:

- كلبك عض ولدي.

التفت الرجل إليها ممتقع اللون، ثم قال:

- اطلعوا معي في السيارة، أحملكم إلى المستشفى.

فصاحت، وهي تضم أحمد إليها:

- لا، لا، وألف يمين، أنا لا أطلع في السيارة مع الكلب؟!

وتقدمت سمر من أبيها، وسألته، بلغتها الناعمة:

- بابا، ما وصلنا إلى الحدية؟!

شتمها، وشتم أمها، وشتم الحديقة، ولما وقفت أمامه سيارة أجرة، حشر فيها زوجته والأولاد، على الفور، من غير أن يسأل السائق عن الأجرة، وطلب منه أن ينقلهم إلى أقرب مستشفى، وفي الطريق روى له ما كان من قصته، فقال له السائق:

- وهل تعرف الرجل؟
- لا.
- وهل أخذت رقم السيارة؟!

فطن إلى قصد السائق، فقال:

- أرجو أن يكون الكلب غير مصاب بشيء، وأن تكون العضة خفيفة.

وتدخلت الزوجة، فعلقت قائلة لزوجها:

- أنت قلبك طيب، دائماً، ودرويش.

نظر إلى الخارج، من نافذة السيارة، وشتم، شتم الدراويش، وطيبي القلب، ثم شتم الدنيا والعالم والحظ.

إنه يعرف الرجل، ولكن أين رآه؟! أين؟! نعم، إنه هو نفسه، لعله يشبهه، لا، إنه هو نفسه، رآه، بل كان دائماً يراه من وراء نافذة السيارة، إنه يعرفه، ويميزه من ألف رجل، ولو غير زيه يعرفه، سواء في زيه الرسمي، أم في زيه العادي، هو نفسه.

وهم يرقون درج المستشفى، قالت له:

- بعد معالجة الولد سترجع لتسأل عن الرجل، لا بد من أن نجد أحداً يعرفه.
- ولماذا؟!

أجابت مستنكرة:

- لماذا؟! لنرفع عليه دعوى.
- نرفع دعوى على من؟! وإلى من؟! ما عرفت أنت من الرجل؟!

سألت باستخفاف:

- ومن يكون؟!

فأجاب:

- رئيس مخفر شرطة البلدية.

وكانوا قد بلغوا نهاية الدرج، فدخلوا إلى المستشفى صامتين.

الورقة

خرجت من المديرية صامتاً، ما جدوى أن ألعن أو أشتم؟!
تعثرت على الدرج، وكدت أقع، ولكني لم أقع، خرجت وأنا أحس كأني مشدود، أو محزوم بقوة، أو كأني مضغوط داخل علبة صفيح صغيرة.
بعد انتظار ساعة، طويت الورقة، ووضعتها في جيبي، ثم خرجت من غير جدوى، الموظف ليس في مكتبه، ليس غائباً، ولا في إجازة، ولم يأخذ إذناً من أحد، ولا أحد يعلم أين ذهب، هو في المديرية وليس فيها، ساعة انتظرته، ولم يأت.
المدير قال: " ماذا تريدني أن أفعل؟ هل أصدر في حقه عقوبة؟ راتبه لا يتحمل أي حسم، ولو كان خمسة بالمئة، وبعد ذلك لا أستطيع أن أخدمك في شيء، لا أستطيع أن أوقع إلا بعد توقيعه، ولا يستطيع أحد غيره أن يوقع بدلاً منه، ما عليك سوى الانتظار، أو تأتي غداً".
خرجت لا أعي ولا أسمع ولا أرى، انتظرت ثم خرجت، كان خروجي قبل انصراف الموظفين بدقائق، وحين خرجت كان بعضهم قد بدأ بالانصراف، وفي الخارج لفحتني ريح شتوية قاسية.
أسرعت إلى موقف الباص، بدأ المطر في الانهمار، والريح تزداد قوة وحدة، وبدأ الموظفون في الخروج من المديرية، وأخذ موقف الباص يمتلئ بالمنتظرين.

مرة أخرى لا بد من الانتظار، أشعر بالاختناق، يداي في جيبي المعطف، والريح تسفعني، والمطر ينهمر، والشارع يمتد أمامي، ولكن أحس أني مضغوط داخل علبة صفيح صغيرة، ومشدود بأحزمة متينة.
مر باص ولم يقف، ثم مر آخر، وبعد انتظار اقترب باص ثالث، غطست عجلاته في رامات المطر المنسكب، رش المنتظرين بماء السيل الموحل، ثم وقف بعيداً، فأسرع المنتظرين إليه، والمطر ينسكب فوقهم، وحين انطلق كان في الباب الخلفي عدد من المتعلقين به، وبعد شيء من التردد، أشرت إلى سيارة أجرة عبرت إليها السيل المتدفق في الشارع، والمطر ينسكب من فوقي، والريح تعصف حادة.
وفور دخولي إلى السيارة احتواني جو آخر، مختلف، دفء لذيذ، وموسيقا هادئة تنساب رخية حالمة، في أنداء من شذى الياسمين، أحسست وأنا أغوص في المقعد الناعمة بالأحزمة من حولي تتفكك، وبعلبة الصفيح الصغيرة تذوب وتضمحل ثم تتلاشى، وكأني بعد ذلك أسبح في حوض من الماء الدافئ.
المطر في الخارج ينهمر غزيراً، والسيارة تخترق غلائل شفافة من خيوط المطر، والمساحات تتحرك بإيقاع ممتع، فينقشع المطر المنسكب على الزجاج، وتتضح الرؤية في تألق وإشراق، يضفي على الأشياء بهاء، ويقوي الإحساس باختراق المطر، والغوص فيه، من خلال

الدفء والنغم والشذا، من غير بلل ولا برد، وكأنما تحلم بالمطر وأنت في الفراش، تنعم بالدفء والخدر اللذيذ.
ولكني فجأة اعتدلت في جلستي، وشددت ظهري إلى مسند المقعد، وأمسكت بالمقبض الداخلي للباب، وأنا أرى السيارات تندفع نحونا واحدة تلو الأخرى، مرسلة أبواقها في جعير قاتل، وهي ما تفتأ تضيء المصابيح الأمامية وتطفئها في تحذير مفجوع.
وألتفت إلى السائق أقول له:
- أنت ذاهب في اتجاه معاكس!!
قهقه وهو يقول:
- لا تهتم، انظر، هم الخائفون، هل يستطع أحد صدمك؟! إذا كنت ستحسب لكل شيء حسابه، فلا يمكنك أن تعيش.
- وإذا برز لك شرطي مرور؟!
- بسيطة، أدفع له، وأدفع الغرامة، مثل هذه المغامرة لا تقدر بثمن، وهل تظن أني أستطيع كل دقيقة أن أدخل في اتجاه معاكس؟! مرة في اليوم أو اليومين، وأحياناً في الشهر مرة، انظر إلى المشاة تحت المطر، يقفون مدهوشين.
- لا شك في أنهم يوجهون لنا الشتائم.
- إذن سأجعلهم يزيدون من شتائمهم، انظر.
وزاد من سرعة السيارة، ومال بها إلى يمين الشارع، قريباً من الرصيف، فأخذ الرشاش المنبعث من طرفي

السيارة، وهي تخترق السيل، يصيب المارين على اليمين، والسيارات على اليسار.
علبة الصفيح التي كانت تحيط بي، بعد أن تحللت من حولي وذابت، بدأت تتحول إلى مدية في الداخل، تغوص في الأعماق، تحز وتقطع، طولاً وعرضاً.

- لا تشفق بهم، لو قعد أي واحد منهم وراء هذا المقود لفعل مثلما أفعل، وزيادة، ولكن لأنهم يمشون ولا يركبون فهم يشتمون راكبي السيارات، بصراحة، أنا كنت واحداً مثلهم، ولكن بعد أن قعدت وراء هذا المقود تغير كل شيء.

أحسست أني سأبصق دماً، وأنا أنظر إلى قبضة يده اليمنى، وهو يدق بها على المقود، دقات تجمع الغضب والقهر، إلى الفرح والسرور، وقد أمسكت يسراه المقود.
قلت له:

- هذا غير صحيح.

أجاب على الفور:

- أنت لا تراهم وهم يعبرون الشارع، لا يتقيدون بإشارات المرور، ولا بمعابر المشاة، ينظرون إليك، يعرفون أن الطريق لك، ومع ذلك يمشون أمامك، بعضهم يركض، وبعضهم الآخر يهرول، ولكن أكثرهم يمشي هادئاً كأنه لا يسمع ولا يرى، ماذا تفعل قل لي؟

وانعطف، فخرج من الاتجاه المعاكس، ودخل شارع رئيسي، حاول الحفاظ على سرعته، ولكنه لم يتمكن، دلف بين سيارتين، وتجاوز التي على يسراه، فجاءه زعيق هادر من بوقها، فمد يده من النافذة فأشار إشارة بذيئة، ولكنه اضطر أخيراً إلى التوقف، وهو يقول:

- انظر هذا أنا الآن متقيد بالنظام والقانون، هل تظن أني أستطيع الخروج من هذا الشارع بعد ساعة؟! إشارة المرور معطلة، وهناك عمال حفريات، وليس عليك سوى الانتظار، هل أنت مستعجل؟

أجبته:

- لا.

فقال:

- إذن، لنأخذ سيكارة.

وتناول علبة تبغ ملقاة أمامه وراء المقود، فتحها، لم يجد فيها سوى سيكارة، قدمها إلي، فاعتذرت، مؤكداً أني لا أدخن، وضعها بين شفتيه، أشعلها، ثم فتح باب السيارة ونزل، أغلق الباب، ومد رأسه من النافذة ليقول لي:

- أنا ذاهب لشراء علبة تبغ.

ومضى أمامي تحت المطر المنسكب.

المساحتان تتحركان في إيقاع خانق، كأنهما شفرتا مقص تقطعان الأوردة والشرايين، والمطر يسح على زجاج السيارة دماً، نتناً أو أبواق السيارات تزعق في صراخ

وعويل حاد مصم، تتخلله نداءات مبحوحة من صفارة شرطي المرور.
رجع يمشي الهوينى تحت المطر، وخل السيارة، وانطلق بها، غير مبال بشيء، لا الأبواق ولا المطر ولا السيارات، وحين مر شرطي المرور حياة بإشارة من يده، وهو يمدها من خلال النافذة.
بعد تجاوز الشرطي، التفت إلي وقال:

- أخبرتني أنك غير مستعجل، ولذلك أرجو أن تسمح لي أن أملأ خزان الوقود من المحطة في نهاية هذا الشارع، ثم أنطلق بك إلى حيث تريد، هل تمانع في ذلك؟

أجبته، في ضيق واشمئزاز:

- لا.

فأضاف على الفور:

- إذن اسمح لي أن أخبرك، من أجل التسلية فقط، وحتى نصل إلى نهاية الشارع في زحمة هذه السيارات، كنت يا سيدي موظفاً فقيراً، وما أزال موظفاً، ولكني لست فقيراً، هذا المقود، هذا الشيء المدور الذي تراه، غير كل شيء، مثل العجلات في المعامل، كنت أخاف من زوجتي ومن المدير، أخاف على أولادي، أخاف من الجوع من الفقر، كنت أظن أنه من المستحيل أن أرى إمرأة أخرى غير زوجتي، ولكن هذا المقود غير كل شيء،

الآن نساء الأرض كلها ملك يميني، زوجتي تذمرت في البدء، ثم أخذت تسعى إلى نيل رضاي، وهي اليوم تعتز بأن زوجها محبوب، وأنا بعد ذلك أعطيها كل ما تطلب، وأشتري لها كل ما تشتهي، كانت الديون متراكمة علي، وأنا اليوم ألعب بالمال كما يقال لعباً، ومع ذلك كما ترى، سيارتي نظيفة ومرتبة، أنتقي الراكب الذي يعجبني، عندي خمس معلمات أجمعهن من بيوتهن في الصباح، وآخذهن إلى المدرسة عند الظهيرة، حين تدخل الواحدة إلى السيارة تدهش، كل يوم أضع في المسجلة شريطاً جديداً، وكل يوم أرش فيها عطراً جديداً، والباقي تستطيع أن تفهمه، حقيقة كما يقال نحن في عصر الآلة، أوربة تصنع وتعمل، ونحن نتقدم ونتطور، هذه السيارة مثلاً مهما ارتفع ثمنها تظل رخيصة، لأننا نشتريها هكذا جاهزة، على كل حال سأحكي لك بعد أن نملأ خزان الوقود.

دخل المحطة، أوقف السيارة أمام مضخة, ونزل, غاب عني, أسندت رأسي إلى المقعد, أغمضت عيني, كل شيء حولي ناعم مترف لذيذ, المقعد والدفء والموسيقا وشذا الياسمين, والمدية في الأعماق تتحرك, تقطع, تحز, مددت يدي إلى جيب معطفي, أخرجت الورقة التي كنت أنتظر توقيعها. , أخذت أنظر فيها.

هل أحدثه؟ هل أروي له؟ حلقي جاف, متيبس, وأنا مضغوط بقوة, محزوم بشدة, وشيء في الأعماق يتقطع, لا جدوى ألبتة, لا تناقش ولا تفكر ولا تتكلم, انتظر فقط, ولا تفعل شيئاً, لأنه لا يمكنك أن تفعل.
ورجع, دخل السيارة, وانطلق بها, لم يعتذر, لم يقل شيئاً, مرة أخرى التزم الجانب الأيسر من الطريق, أسند مرفقه اليسرى إلى النافذة, وفجأة تابع حديثه, و كأنه لم ينقطع.

- اشتريت السيارة منذ سنتين, فقط, هل تصدق, استدنت ثمنها من أصدقائي, وأدخلت بعضهم شركاء، دفعت نصف ثمنها، والنصف الآخر دفعته أقساطاً، كنت أعمل فيها، ومن عملي فيها أدفع الأقساط، ثم وفيت الديون، ثم اشتريت حصص الأصدقاء الذين كانوا شركاء، بعد شهر من شرائها ارتفع ثمنها، بعد خمسة أشهر تضاعف، حين وفيت ثمنها كاملاً، كان سعرها قد تضاعف مرتين، ولو لم أفعل ذلك لبقيت موظفاً من الدرجة الرابعة، أخاف الفقر والجوع، كنت أصغر موظف في المؤسسة، أخدم هذا وذاك، وأحترم الجميع، ولكن لا أحد يحترمني، اليوم المدير نفسه يطلب رضاي، ولا يسأل متى جئت إلى المؤسسة أو متى خرجت، طبعاً لكل شيء ثمنه، وأنا أعرف كيف أقدم له الخدمات قبل أن

يطلبها، هل أدخل في هذا الشارع أو الشارع الثاني؟

- لا، الشارع الثاني.
- أمرك، يكفي أن أذكر لك أني لا أكون على رأس عملي إلا حوالي التاسعة، وحوالي الثانية عشرة أغادر المؤسسة، أحياناً أرجع في الثانية والربع لأوقع دفتر الانصراف، وعلى الأكثر لا أرجع.

المطر ينسكب على الزجاج، فيبدو الأشخاص من ورائه أشباحاً، ويعكس صورة الرجل في الداخل، نظارتان سوداوان طبيتان، شاربان أسودان كثيفان، شعر أسود كثيف، وجه عريض، تخيلت الشفتين سوداوتين، مددت يدي إلى جيب المعطف، تلمست الورقة، عثرت يدي بشيء صلب حاد، المدية قفزت من الأعماق إلى يدي، أمسكت بها، ولأول مرة في التاريخ أهويت بها على عنق الرجل، على الجوزة التي كنت أتصور أن الصوت يصدر منها، رأيت في داخلها حبالاً غليظة، حاولت تقطيعها، فترنحت، وتساقطت كلمات لم أفهمها.

نظرت إلى قبضة يده السوداء على المقود، قفزت على الفور إليها قبضة يدي، غرزت أظافري في عروق يده السوداء، وشددت المقود بعنف، فانحرفت السيارة حطمت الرصيف، وتحطمت مثل علبة صفيح صغيرة.

- هنا، إذا سمحت.

توقف، دفعت له أجرته، سألني، وهو يعيد البقية:

- هل أنت موظف جديد في المديرية التي حملتك من أمامها؟!
- لا.
- حسبتك موظفاً جديداً، لأني أعرف كل موظفيها.
- لا، لدي عمل فيها.
- مديرها صاحبي، إذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة فأنا على استعداد لخدمتك، قل لي فقط أين بيتك، وأنا آتي غداً صباحاً لآخذك.
- لا، شكراً.

نزلت، أغلقت الباب، كان المطر ما يزال ينهمر غزيراً، أسرعت إلى مدخل البناء، وأخذت أصعد الدرج.

دخلت على الموظف، رأيته وراء مكتبه، مكباً على أوراق بين يديه، لا يبدو شيء من وجهه، سوى صلعته البيضاء متألقة، نظرت إلى مكتبه فرأيت علبة صفيح صدئة، يبدو أنه يضع فيها تبغاً يدرجه لفافات بيده، افتعلت سعالاً، فرفع رأسه، فرأيت حنجرته مثقوبة، وقد سدها بسدادة سوداء، تكلم يسألني ما أريد، ولكن من غير صوت، وضع توقيعه على الورقة، ثم تناول ختماً مدوراً من الدرج، لمحت في الدرج أشرطة تسجيل وزجاجات عطر بعدد أيام السنة، وضع ختمه على الورقة، كانت يده تنتهي عند المعصم، من غير كف، من غير قبضة.

وجدت نفسي أمام باب الدار، مددت يدي إلى جيب المعطف، أبحث عن المفتاح، فعثرت بالورقة.

كنت مسرعاً، أحث الخطا أنا وصديقي عزيز، قاصدين مكتب صديقنا نجيب المحامي، فقد كنا على موعد معه في مكتبه، وتأخرنا عنه.
ونظرت إلى موضع أبو سليم، فلم أره، توقفت كأني أبحث عنه، لاحظ صديق توقفي، فسألني:

- هل لفت نظرك شيء؟
- نعم، لا أرى أبو سليم؟!

فنظر إلي مدهوشاً، ثم قال:

- يبدو أنك لا تعرف؟!
- لا، ما حل به؟!
- داسته سيارة عابرة.
- وكيف؟
- كان قاعداً كعادته على طرف الرصيف، فمرت به سيارة مسرعة، داسته، ومضت.
- وهل عرفت لمن هي، أو من سائقها؟
- لا، قيل فتى شاب كان يقودها، لعله دون الثامنة عشرة.
- ولكني لم أقرأ شيئاً عن ذلك في الصحف.
- وهل تتوقع أن يكتب أحد عنه؟

دهشت، التفت إلى موضع أبو سليم، لم أر أحداً، حتى موضعه ما رأيته، أرتال من السيارات قادمة، وحشود من الناس على الرصيف، يلتقي فيها الغادي بالرائح.
وسرت مع صديقي عزيز، نحث الخطا، مسرعين وسط الزحام.

*

المنطقة الممتدة بين مقهى النجمة و سينما فؤاد هي منطقته، بل هي عرشه ومملكته.
أعرفه هناك منذ أكثر من ثلاثين سنة، منذ أ، كنت صغيرا لم أبلغ العاشرة، كنت أراه هناك، وكان آنئذ في نحو الأربعين .
في تلك المنطقة يروح ويجيء، بمعطفه الطويل حتى قدميه، والعريض عليه، والذي لا يخلعه في صيف ولا شتاء، وهو يلوح بيديه ذات اليمين وذات الشمال، ويوقف تلك السيارة، ويشير إلى تلك، ويدق بيده على مقدمة واحدة، فتقف، ولا يسمح لها بالمرور، ويدق على أخرى، فيتركها تمر، وكثيراً ما كان يعرقل السير، ويسرع إليه شرطي المرور، وهو ينفخ في صفارته.
منذ أن عرفته كان صوته أجش، مبحوحاً بقسوة حادة، وهو ما يفتأ يصيح، ويترنح، ويضطر إلى الاتكاء على سيارة ما، بعد أن يوقفها، وربما وقع ثم نهض، وبين الحين والآخر يخرج من جيب معطفه الداخلي بطحة عرق بيضاء، يرفعها إلى أعلى، يشهرها في وجه

السيارات القادمة، يأخذ منها جرعة، ثم يعيدها إلى جيب معطفه الداخلي.
وكثيراً ما كنا ونحن صغار في المدرسة نقلد صوته الأجش المبحوح.
المدينة كلها تعرفه، فهو في قلبها النابض، في المنطقة الأكثر حيوية، فمن مقهى النجمة إلى سينما فؤاد تقع ثلاث دور للسينما، ومقهى آخر، وعلى الرغم من أن الشارع لا يمتد أكثر من سبعمئة متر، فإن فيه مطعمين فخمين، وثلاثة محلات لبيع الأطعمة الرخيصة والشطائر، وأكثر من خمسة محلات لبيع مختلف أنواع العصير والمرطبات والحلوى والمسليات، وباقي المحلات هي لبيع الأحذية والألبسة الجاهزة، بل هنالك ثلاث محلات لبيع الصحف والمجلات والكتب الشعبية، وفوق تلك المحلان عيادات الأطباء، ومكاتب المحامين والمهندسين.
هي المنطقة التي يقصدها كل من يغادر منزله في المساء أو الصباح باحثاً عن التسلية والترفيه عن النفس، أو راغباً في شراء حذاء أو قميص أو معطف، أو ساعياً لزيارة طبيب أو مراجعة محام.
هي المنطقة التي نسعد بزيارتها، منذ أن كنا صغاراً، ولاسيما في أيام الأعياد، وفي مثل تلك الأيام يقصدها الأطفال من كل أنحاء المدينة، كما يقصدها الشباب، وتغص بهم دور السينما، كما تغص بهم المطاعم، وكافة المحلات، وحتى الأرصفة، والشارع الرئيسي، وربما

تعطل المرور فيها ساعات ولاسيما في المدة بين انتهاء عرض سينمائي، وبداية عرض آخر.
وفي قلب تلك المنطقة، في الوسط من شارعها المستقيم، يقف أبو سليم، ينظم حركة المرور، أو هكذا يبدو لمن يراه، ولا بد لكل ذاهب أو آيب من أن يراه بمعطفه الطويل، وأن يسمع صوته الأجش المبحوح.
إذا مرت به سيارة أجنبية خاطبها بكلمات فرنسية لا معنى لها، وإذا مرت به سيارة حكومية قدم لها تحية رسمية، وحين يسمع صراخ سيارة الإسعاف يوقف على الفور حركة المرور، أما باقي السيارات فلا تعرف ماذا يصيح بها، ولا تفقه شيئاً مما يقول، ولا يصلك غير صوته الأجش المبحوح، وهو يشير بيديه ويصيح.
وفي المنطقة التي يقف فيها تستطيع أن تعبر الشارع بأمان، لأنه على الفور يقطع حركة المرور، ويخلي لك الطريق، ولذلك كنا دائماً نعبر الشارع في المنطقة التي هو واقف فيها، كنا نفعل ذلك ونحن صغار، وكان يسعد بذلك، ويربت على رؤوسنا، وكنا نفعله، ونحن كبار، وهو يشير إلينا، يطلب منا الإسراع.
كنا ندعوه:"أبو سليم"، وكنا نسمع تفسيرات كثيرة لإدمانه أو جنونه، أصيب بحمى ففقد عقله، هكذا كان يقال، كما كان يقال: رأى زوجته مع عشيق لها، فجن، وسمعت مرة من يقول: تعمق في دراسة الفلسفة فجن وآخرون قالوا: تعلم لغات كثيرة، فخلط بينها وجن.

وكـان ثمـة أقـوال أخـرى مختلفـة، تنفـي جنونـه، وتؤكـد إدمانـه، صـدمته سيارة، وهو منذئـذ نـاقم علـى السيارات والسـائقين، فـرت زوجتـه مـع سـائق سيارة، وكانـت عنـده سيارة، فانقلبت بـه، تحطمـت السيارة، ونجـا هـو، كـان لـه ولد، صدمته سيارة.

كنـا نتناقـل كـل الأقاويـل عنـه، ولا نكـاد نفكـر فـي صـدق شيء مما يقـال، فـلا أحـد يعـرف علـى وجـه اليقين السـبب الصـحيح وراء إدمانـه أو جنونـه، بـل إن أحـداً لا يسـتطيع أن يقطع بشيء، هل هو مدمن أو مجنون؟!

ومنذ بضـع سـنوات وقفـت علـى الطريـق أتأملـه بعنايـة، لـم يكن حليق الذقن، وكان الزبد يخرج من زاويتي فمـه، وقـد أصـبح معطفـه أسـود، وظهـرت فيـه بقـع وسـخ كثيـرة، وواضـحة بشـدة، كمـا بـدا المعطـف وقـد ازداد طـولاً وعرضـاً، وظهـر وهـو فـي داخلـه يلـوح بيديـه مثـل فزاعـة في حقل، نخرتها العصافير، وتنـاثر مـا فيهـا مـن قـش، فلـم يبـق سـوى أعـواد صـغيرة تظهـر عنـد العنـق وأطـراف اليدين.

وحاولت فهم ما يقول، ولكنـي لـم أتمكن، كـان ينطـق، بـل كان يصيح، ويرفع صوته، وتنتفخ عروق رقبتـه، ويشـير بيديه، ولكن لا صوت لـه، كـان صـوته غائبـاً، ولـيس ثمـة غير فحيح مقطـوع، ولكنـي كنـت علـى يقين مـن أنـه كـان يحسب أن صوته يجلجل في العالم كله.

عبرت الشارع ببطء، وتريثت قريباً منه، فزكمت أنفي رائحته المنتنة جداً، ورأيت وجهه قد اسود، مثلما اسود معطفه، فقد تشرب وجهه ومعطفه بكل دخان السيارات.
ونظرت إليه وهو يفتح فمه ويصيح، التقطت شيئاً مما يقول، "لا، لن تمروا، قفوا، لن يمر أحد منكم قبل أن أعرف تلك السيارة، قبل أن أكشف ذلك السائق"، هكذا رأيت كلماته، وهي تخرج من فمه، من حلقه المبحوح المحروق المسود، أجل هكذا رأيت فمه يقول، ولكني لم أسمع صوته.
وازداد اهتمامي به، وأخذت أسأل عنه كثيرين، فاروق، صاحب مقهى النجمة، وأسعد، النادل، وصديقي نجيب المحامي، ومكتبه في الطرف الآخر من الشارع، قرب سينما فؤاد، وأصدقاء المقهى، ولكني لم أحظ بما هو جديد.
ومرت الأيام.
ونسيت "أبو سليم"، أو بالأحرى قل اهتمامي به، وعاد موضعه المألوف، جزءاً طبيعياً من أجزاء تلك المنطقة، مثل حواجز الرصيف وإشارات المرور ولوحات الإعلان المضيئة فوق المحلات.
وتغيرت أشياء كثيرة في تلك المنطقة، هدمت بعض المحلات، ونهضت في موضعها أبنية طابقية شاهقة، كلها مكاتب لمحامين ومهندسين وعيادات لأطباء، ومحلات للألبسة والأطعمة، وافتتح في الشارع ملهى،

ولم يلبث أن افتتح ملهى آخر، وتحول أحد المحلات عن بيع الكتب والمجلات إلى بيع أشرطة التسجيل والفيديو، وتحول مثله محلان آخران، وكثير من المحلات غيرت واجهاتها، واتخذت واجهات جديدة أكثر جذباً للمشترين أو المتفرجين.

تغيرت أشياء كثيرة، وتغير أيضاً أبو سليم، هرم، بل شاخ وعجز، وغاب صوته نهائياً، حتى الحشرجة غابت، وحتى الفحيح المقطوع، واسود معطفه تماماً، وترك موضعه في وسط الشارع، وأخذ يقعد على حافة الرصيف، وقد يشير بيديه، وقد لا يشير، وقد يفتح فمه، وقد لا يفتحه، والسيارات تمر، ولا أحد يبالي به، بل لعل أحداً لا يراه، وكأنما ألقى بتلك الفزاعة إلى طرف الحقل. ونسيت أبو سليم، أو كدت أنساه.

*

واليوم فجأة، يحدثني عنه عزيز، لم يحدثني عنه أحد، حتى أصدقاء المقهى لم يذكر أحد منهم حادث موته.

- متى حدث ذلك يا عزيز؟

والتفت إلي عزيز يسألني، ونحن نصعد الدرج إلى صديقنا المحام نجيب:

- أي شيء؟!

بدا واضحاً أنه نسي قصة أبو سليم تماماً، فقلت له:

- حادث موت أبو سليم.

فأجابني:

- منذ أسبوع تقريباً.

وتوقف عند إحدى الدرجات، ليلتقط أنفاسه، ثم قال:

- هل تعرف المنطقة التي كان يقف فيها؟!
- طبعاً أعرفها.
- تلك المنطقة لها ذكرى مؤلمة في نفسي، وكنت سأحدثك عنها حين مررنا بها هناك.

وتابع صعوده ببطء شديد، وهو يتحدث:

- كان ذلك قبل خمسين سنة، كنت في نحو السابعة، جئت إلى سينما فؤاد مع ابن خالتي، في أحد الأعياد، كان الشارع مزدحماً، قال لي ابن خالتي: انتظر هنا، أنا ذاهب لأشتري بطاقتين، لا تغادر موضعك.

وتوقف عزيز عند درجة عريضة، التقط أنفاسه، ثم تابع حديثه: كان ابن خالتي أكبر مني بخمسة أعوام، وقفت أنتظر، وفجأة تدحرج أمامي طفل صغير وصك سمعي صوت مكابح جارحة انغرست في شراييني، أعقبها صوت مواء أو عواء أو نباح، لست أدري، هو صوت ما، ما أزال أذكره، زقزقة، أو حشرجة، كان صوت ذلك الطفل، وهو يتدحرج أمام السيارة، والدم ينفجر من رأسه، ثم اندفع رجل بمعطف طويل، وانكب فوق الطفل، وتنبهت إلى أن هذا الطفل كان منذ دقائق يمسك بيد ذلك الرجل، وأنهما كانا يريدان عبور الشارع معاً، ولكن

كيف أفلت من يده.. على كل حال، هربت السيارة مسرعة.
مرت هنيهة صمت، ثم التفت إلى صديقي عزيز أسأله:
- وهل تظن أن ذلك الرجل هو نفسه أبو سليم؟!
فدهش، وربع حاجبيه الكثيفين، ثم قال:
- لا أعرف، ولكن ربما كان هو.

المحتوى

- حلم الأجفان المطبقة
- شهادة وفاة
- الصورة الأخيرة للمدير العام
- العطر الفاخر
- زيارة
- أنا والأفعى
- فنجان قهوة
- دار عباس
- لقاء في غداء متأخر
- نزوة
- عودة الموظف إدريس إل بيته
- الشحم الأسود في زاوية الفم
- ذات المعطف الوردي
- البحث عن الحب
- ثلاثة آلاف دولار
- حادث في الشارع الخلفي
- خطة للانتقام
- الأرصفة
- الورقة
- أبو سليم

صدر للمؤلف

1- حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982، 430 صفحة.

2- من الحكايات الشعبية، (مجموعة حكايات شعبية):
وزارة الثقافة، دمشق، 1983، 194 صفحة.

3- يوم لرجل واحد، (مجموعة قصص قصيرة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1986، 200 صفحة.

4- المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة):
دار طلاس، دمشق، 1989، 374 صفحة.

5- حجارة أرضنا، (مجموعة قصص قصيرة):
مطبعة عكرمة، دمشق، 1989.

6- الكوبرا تصنع العسل، (رواية):
دار القلم العربي، حلب، 1996، 146 صفحة.